أديلايدا غارثيا موراليس

الجنوب

ترجمة: مارك جمال

منشورات تكوين | مرايا
TAKWEEN PUBLISHING

«وأي شيء نملك أن نحبّ،
على ألاَّ يكون ذلك الشيء ظلاًّ؟».
هولدرلين

غدًا، ما إن يشرق الفجر حتى أذهب لزيارة قبرك يا بابا. قيل لي إن الأعشاب البرية تنمو بين شقوق القبر وإنه لا يزدان بالأزهار اليانعة أبدًا. لا أحد يزورك. لقد رحلَت ماما إلى أرضها، وأنت لا أصدقاء لك. قيل عنك إنك في غاية الغرابة... أما أنا فلم أستغربك يومًا. كنتُ أفكِّر أنك ساحر آنذاك، وأن السحرة مُتوحِّدون عِظام دائمًا. ربما كان هذا هو السبب الذي جعلك تنتقي ذلك البيت، على بعد كيلومترَين من المدينة، ذلك البيت الضائع وسط الحقول، الذي لا جيران له. كان أكبر مما يلائمنا، وإن سمح ذلك للعمة ديليا، أختك، بالحضور لتمضية بعض الأوقات معنا. لم تحبّها أنتَ كثيرًا: أما أنا فهمتُ بها حبًّا. كما اتَّسع بيتنا لأغوستينا، الخادمة، وخوسيفا، التي كرهتَها أنت. ما زلتُ أستطيع رؤيتها حين وصلَت إلى البيت وقد اتَّشحَت بالسواد، وارتدَت تنورة طويلة جدًّا تبلغ كاحلَيْها، واعتمرَت غطاء الرأس الأسود الذي حجب شعرها المُجعَّد. لم تكُن عجوزًا، وإن جاز القول بأنها حاولَت أن تبدو كذلك. رفضتَ أن تعيش خوسيفا في البيت. بينما قالت ماما: «إنها قديسة»، فلم يترك ذلك في نفسك أثرًا، إذ لم تؤمن بتلك الأمور. ثم قالت ماما عنها: «كم تعاني!». كان زوجها يدمن الكحول، ويضربها

لإرغامها على الاشتغال بالدعارة. ولكن حتى تلك المأساة لم تحرِّك مشاعرك. غير أن خوسيفا مكثَت في البيت يومًا، فيومًا آخر، ثم لم تجرؤ أنتَ على طردها. وبعد مضي أعوام، كانت هي التي حرَّضَت ماما على أن تمزِّق صورك في كل أرجاء البيت، مع أنك قد فارقتَ الحياة لتوّك. وعلى الرغم من ذلك، فأنا في حاجة إليها كيما أستحضر صورتك بدقة. وأنت لا تدري أي شيء رهيب قد يكون استحضارُ وجهٍ بصفاء، وجه لم يعُد على قيد الوجود، الآن، في صمت هذه الليلة. يبدوُ لي وكأنني ما زلتُ أراك مفعمًا بالحياة، وكأن جرس صوتك ما زال يرنّ، مع أنه قد انطفأ إلى الأبد. أذكر شعرك الأشقر، وعينَيْك الزرقاوَيْن اللتين تبدوان لي كعينَيّ طفلٍ، الآن وقد حضرَت إلى ذاكرتي ابتسامتك بالغة الاستثنائية. كان في نفسك شيء نقيٌّ، مُشرِق، وفي الوقت نفسه مسحة من الحزن الذي صار بمضي الأعوام مرارةً عميقة وقسوةً لا تلين.

ما كنت أعرف أي شيء عن ماضيك آنذاك، فأنتَ لم تتحدَّث عن نفسك أو عن أقربائك يومًا. كنتَ عندي سرًّا يلفّه الغموض، كائنًا استثنائيًّا جاء من أرض غير الأرض، من مدينة أسطورية لم تسبق لي زيارتها إلّا مرةً واحدة، تذكَّرتُها وكأنها أجواء حلمٍ... كائنًا جاء من مكان مذهل، تتراءى الشمس فيه وكأنها تسطع بضوء غير الضوء، هناك حيث مضيتَ يحملك شغفٌ قاتمٌ على الذهاب إلى غير عودة. أنت لا تدري كم أحسنتُ فهمَ تلك الميتة التي وقع عليها اختيارك آنذاك. أعتقد بأنني لم أرث عنك الوجه فحسب،

وجهي الذي اصطبغ بألوان أخذتُها عن ماما، بل ورثتُ عنك قدرتك الهائلة على الوقوع في اليأس أيضًا، وفوق ذلك قدرتك على الانعزال. حتى الآن ما زلتُ أشعر بأنني أفضل حالًا كلما زادت العزلة المحيطة بي. وعلى الرغم من ذلك، فلقد وجدتُني أتكبَّد هجرانًا شديدًا ليلتذاك. لن أنسى أبدًا ذلك الظلام الدامس الذي غشي البيت حين اختفيتَ أنت. كنتُ في الخامسة عشرة، ورحتُ أرنو عَبْر زجاج نافذتي. لم يتحرَّك شيء واحد في الخارج، ومن موقعي في ذلك السكون الباعث على اليأس مضيتُ أنصت إلى صوت المطر، بينما جاء صوت خوسيفا من وراء ظهري، من خلف باب حجرتي المُوارَب: «كلا يا تيريسا، البكاء لا يجدي نفعًا في هذه الحالة. لطالما كان الرَّبُ رحيمًا. دعينا نبتهل حتى يتغمَّد روحَه برحمته». لم تقُل ماما شيئًا. أما نشيجها فبات نحيبًا يائسًا. لم تواتِني الجرأة على إصدار أدنى صوت، علمًا مني أنها تفضِّل الاعتقاد بأني نائمة. مرَّتا أمام باب حجرتي عدة مرات. وراحت كلتاهما تجوب البيت من أقصاه إلى أقصاه، وكأنهما تأملان العثور على شيء، في أحد الأمكنة، شيء ينفي ما قد عرفناه جميعًا.

أوصدتُ دفتَي النافذة وأضأتُ المصباح. أردتُ أن أعرف كم ساعة أمضيناها في انتظارك. وعند ذاك، على الطاولة المجاورة للفراش، وجدتُ البندول الخاص بك محفوظًا في صندوقه الأسود المطلي باللك. تراءى لي وكأنه ينبثق من حلمٍ، من ذلك المكان السحري الذي لا زمن فيه، هناك حيث مرَّت طفولتي معك. تركتُ

البندول يتأرجح أمام عينَيَّ، من دون أن أبحث عن شيء، وكأنما قد فقد معناه. سرَت في بدني رعشةٌ حين تذكَّرتُ أنه كان على قيد الوجود قبل مجيئي إلى هذا العالَم، فباستخدام هذا البندول حدستَ أنت بأنني بنتٌ قبل مولدي[1]. أعتقد بأنني قد شُغِفتُ بكل ما كنتَ أنت مصدره في تلك الأيام، ولم يقتصر شغفي على قواك السحرية. لن أنسى أبدًا تلك الحماسة التي كانت تدفعني إلى أن أقفز على الطريق وأركض حتى ألقاك، متى لمحتُك من بعيد، وكأنك نقطة داكنة صغيرة لا يتعرَّفها أحدٌ سواي، بينما أنت مُقبِلٌ على درَّاجتك ببطء. كنتَ تحضر بعد إلقاء دروس اللغة الفرنسية في المعهد. ولهذا السبب عشنا هناك. لم ترغب أنتَ في العودة إلى إشبيلية، مدينتك، ولا في الذهاب إلى سانتاندير، أرض ماما. مع أنها لم ترغب إلَّا في الخروج من تلك العزلة، والعيش وسط الآخرين، كما قالت في كثير من الأحيان. أذكر أنني كنتُ أفتح السياج في انتظارك، فأحسّ وكأنني أتنفَّس هواءً أنقى. لم تسمحا لي بالخروج وحدي إلَّا في تلك الساعة. أحيانًا، وبينما أنا في انتظارك، كنتُ ألملم الخروب المتساقط من الأشجار وآكله. راقني الخروب كثيرًا، ولم أجرِّبه في مكان آخر قطّ. كنتُ أنتظرك حتى والمطر ينهمر. أما لو طاب الطقس، فكنتَ تُجلِسني أمامك على قائم الدرَّاجة، وتأخذني في جولة قصيرة. أذكر

---

(١) في هذه الرواية تكثر الإشارة إلى «الزُّهْري» (نسبةً إلى كوكب الزهرة)، وهو الشخص الذي يُعتقَد بامتلاكه القدرة على العثور على الأشياء واكتشافها، ولا سيما المياه الجوفية. جدير بالذكر أن اللفظة عربية الأصل «zahorí» ما زالت مُستخدَمة باللغة الإسبانية حتى وقتنا هذا. (المترجم)

تلك اللقاءات بوصفها أسعد لحظات اليوم. وإن راقَتني الدروس التي كانت تلقيها عليَّ ماما في النهار أيضًا. استطاعَت أن توقظ في نفسي اهتمامًا بكل ما تلقِّنني إياه. والأهم أنها كانت تلطف بي آنذاك أكثر مما تفعل في أي وقت سواه. ربما كان التعليم رسالتها، وإن عجزَت عن مزاولة المهنة إلَّا معي أنا، لأنها قد أُوقِفَت عن التعليم إبان الحرب. ومع ذلك، تولَّد لديَّ انطباع بأنها تضيق بكل شيء -إلَّا في تلك الأوقات-، وإن كانت تنفق الشطر الأكبر من وقتها في الأنشطة الأحبّ إلى نفسها، فتعتني بالحديقة، وتقود الدرَّاجة، وتخيط، وتطرِّز، وتقرأ كثيرًا جدًّا. أعتقد بأنها حاولَت أن تكتب نصًّا ذات مرة، غير أنها لم تنتهِ من كتابته. كرهَت أشغال البيت. لم أحتفظ إلَّا بذكريات قليلة لأمِّي من طفولتي. كما لو كانت تغيب في كثير من الأحيان، فتوصد باب إحدى الحجرات على نفسها، أو تذهب في جولة بعيدًا عن البيت. وإن صارت تسمح برؤيتها أكثر قليلًا منذ جاءت خوسيفا. أذكر جلساتهما على المائدة بعد تناول الطعام، وهما تخيطان أو ترتشفان القهوة. درجتُ على حضور تلك الجلسات، وتولَّد لديَّ انطباع بأنهما لا تريانني. في تلك الأجواء التي خلقَتاها معًا، كانت صورةٌ لك تطفو في الهواء -شديدة الاختلاف عن تلك التي كوَّنتُها بنفسي-، راحت تتجسَّد في داخلي، وتؤلمني. كانت صورةٌ مبهمة تنبثق مِن كلماتهما، مِن الأشياء التي عرفتاها وجهلتُ أنا بها، مِن الصلاة الربَّانية اليومية التي كنا نتلوها كلَّما ختمنا صلاة المسبحة من أجل خلاص نفسك. لطالما تحسَّرَت ماما بسبب تلك الحياة التي فرضتَها أنت عليها، حيث بقيَت حبيسةً في ذلك البيت

الموغل في البُعْد عن كل شيء، بل إنني رأيتُها تبكي لهذا السبب. كانت خوسيفا إذا تحدَّثَت عنك ختمَت حديثها قائلةً: «إن كل ما يعيبه عدم الإيمان، فبغير الإيمان لا يمكن إلَّا أن يكون بائسًا». كنتَ تظهر أنت هناك، بينهما، كمن يتكبَّد شقاء فوق طاقة البشر، عصيًّا على الإدراك. وفي تلك الصورة التي مضَت كلتاهما تطلعني عليها في غيابك، حتى أنا استطعتُ أن ألمحَ مرارةً شديدة. ولكني لم أتمكَّن من سؤالك بشأن ذلك يومًا، إذ كان حضورك، الذي طالما وجدتُه رقيقًا مشرقًا، ينسيني ذلك الظلّ المُروِّع الذي أشارت كلتاهما إلى وجوده في شخصك.

في المساء، وأنت لستَ معي، كنتُ أحوم حول باب مكتبك المُوصَد، في غير علم منك. حُظِر المكان على الجميع، وأبيتَ أنت حتى أن يدخل أحدٌ لتنظيفه. أوضحَت لي ماما أن تلك الحجرة السرية لا يمكن فتحها لأن قواك السحرية تتراكم هناك، وربما خرَّبها أحدهم لو دخل إليها. كم مرة جلستُ على أريكة الصالون المجاور، ورحتُ أتأمَّل من موقعي في الغبش ذلك الباب الذي حُظِر حتى عليَّ أنا، وأنا لا أكاد أتحرَّك، لئلَّا تكتشف وجودي. كنتُ أغمض عينَيَّ وأركِّز انتباهي حتى ألتقط أي صوت قد يأتي من الداخل، هناك حيث تتدرَّب أنت باستخدام بندولك طوال ساعات تبدو لي وكأنها بلا نهاية. كان الصمت يخيِّم مطبقًا، فلم أتمكَّن من سماع أدنى صوت يومًا. في بعض الأحيان، كنتُ أقترب في تكتُّم ناظرةً من خلال ثقب المفتاح، من دون أن ألمس الباب،

فإذا بي أسمع خفقات قلبي، ولكني لا أرى شيئًا، ولا أراك حتى أنت. ذات مرة سألتُ ماما إن كانت رؤية تلك القوى أمرًا ممكنًا، فأجابَتني بأن الضرورة تقضي باختفائها طوال الوقت، لأنها سرٌّ يلفه الغموض، ولو رأته عينٌ ما عاد كذلك. من الجدير بالفضول كيف أن ذلك الشيء الخفي عن الأنظار، الذي لم يكُن موجودًا في الواقع، قد جعلني أعيش اللحظات الأشدّ زخمًا في طفولتي. أذكر الساعات التي كنا نمضيها في الحديقة وقد انصرفنا إلى تلك اللعبة التي ابتكرتَها، فلم يشارك فيها سوانا، أنت وأنا. كنتُ أخفي أي شيء حتى تعثر عليه أنتَ باستخدام البندول. لا تدري كم كنتُ أبذل من جهد في العثور على شيء متناهي الصغر، أقرب ما يكون إلى الخفاء، فأخبِّئ فتات خبز أسفل حجرٍ، تحت شجيرة ورد، أو أترك إحدى بتلات الأزهار طافيةً على صفحة ماء الفسقية العكر، أو أداري خلفك حصاة صغيرة، لا يميِّزها أحدٌ سواي، في أي مكان. لم تكُن عندي نية لإثارة الحيرة في نفسك، ولكني ذُهِلتُ لأنك تصيب دائمًا في أمور يبدو لي التخمين بها ضربًا من المحال. كم مرة أقبل الليل وأنا أتأمَّل كيف تتحرَّك ببطء في الاتجاه الذي يشير إليه البندول، مُقترِبًا من الموضع الذي اخترتُه أنا سرًّا! كنتُ أستغرق آنذاك في الصمت والسكون اللذين يسودان الحديقة تمامًا، ويجعلانه في عينَيَّ مكانًا من أمكنة الأحلام.

ربما لم تصنع تلك المعجزات المذهلة التي كانت خوسيفا تنسبها إلى القديسين الذين تعوَّدَت أن تقرأ عليَّ سِيرَهم بصوت مسموع.

غير أنك امتلكتَ القدرة على عمل أشياء ملأتني ذهولًا -وإن لم تبدُ على ذلك القدر من الأهمية- واستطعتَ أن تُحقِّقها أمام عينَيَّ، وأظهرتَ لي واقعًا يختلف اختلافًا شديدًا عن ذلك الواقع الآخر حيث يتحرَّك الباقون. كثيرًا ما سألتُ نفسي إن كنتُ قد ورثتُ عنك تلك القوى التي لم يبدُ أن هناك أحدًا يمتلكها سواك، وأنا ابنتك. ذات يوم سألتُك عن ذلك مباشرةً، فقلتَ لي: «لا أدري. يجب علينا أن نجري اختبارًا». «متى؟»، سألتُك في حماس. «غدًا»، أجبتَني برصانة وحزم.

أُغمض عينَيَّ فأجدني ما زلتُ أستطيع أن أرى كيف أخذتَ بيدي ماضيًا عَبْر ذلك الرواق الطويل، هناك حيث تتدفَّق الآن تيارات الهواء بين جدران مقشورة، وتتسلَّل السحالي عَبْر نوافذ لم تُوصَد بإحكام. أذكر أن الليل كان مُقبِلًا. وحين وصلنا إلى الجانب الآخر من البيت، الجانب الذي سكنتَه أنت، طلبتَ مني أن أنتظرك لحظةً. أطبقَت على المكان عتمةٌ شديدة إلى الحدِّ الذي جعلك تتقدَّمني لإضاءة المصباح. دخلنا إلى مكتبك، حيث تسلَّلَت آخر بقايا ضوء النهار عَبْر النافذة المواربة. ما كدنا ندخل إلى تلك الحجرة التي كانت لك أنتَ وحدك، حتى أحسست بأنَ الهواء ليس مُجرَّد هواء، وإنما اتَّحد به شيء آخر، شيء عصي على الرؤية، أحسستُ به على بشرتي وكأنه كثافة باردة تلامسني وتلفّني. لم تُضطَرّ إلى الإسهاب في الشرح، إذ كنتُ أعرف كيف أمسك بالبندول على أكمل وجه، فلقد رأيتُك تتدرَّب على استخدامه مرات بالغة الكثرة... ولمَّا صار

في يدي، وأمسكتُ السلسلة بين السبابة والإبهام، أورثني سكونُ البندول شعورًا بالإحباط. خفتُ ألَّا يتحرَّك معي أبدًا. أما أنت، فقلتَ لي هامسًا: «والآن، سأخفي عقرب هذه الساعة. لا تبحثي عن شيء. ولا تتحرَّكي حتى يشير البندول إلى أحد الاتجاهات. والأهم ألَّا تفكِّري في شيء. لا بد أن يبقى ذهنكِ خاويًا، في سكون مطلق. عند ذاك وحسب تظهر تلك القوى من خلالكِ، وتُحرِّك البندول». أطفأتَ المصباح من دون أن تكفّ عن الكلام بذلك الهمس الرقيق الذي مضى يجتاح ذهني، فأحسستُ بقلبي يخفق بعنف، وبأنفاسي تضطرب، وبجسدي يبدأ في الارتجاف. وحين أضأتَ المصباح مرةً أخرى قائلًا إنك قد أخفيتَ العقرب، أغمضتُ عينَيَّ نصف إغماضة شاخصةً إلى البندول، كما سبق أن رأيتك تفعل. لم يتحرَّك مطلقًا. غير أنني قد عقدتُ العزم على الاحتفاظ بذلك السكون، من دون أن يرفّ لي جفنٌ، حتى تظهر القوى، مهما استغرق ذلك من وقت. سمعتُ صوتك، الذي جاء هامسًا طوال الوقت: «متى هدأ ذهنك، فلكِ أن تستحضري عقرب الساعة الذهبي، وكأنه الشيء الذي لا يوجد في العالَم سواه». غير أنني وضعتُ انتباهي في تأرجحات البندول ولم أعُد قادرة على استحضار أي شيء. نسيتُ كل شيء، وما عدتُ أسمع صوت أنفاسي وخفقات قلبي التي هدأت. لم تعُد هناك إلَّا تلك الذبذبة أمام عينَيَّ وصوتك خلف ظهري. قطعتُ بضع خطوات في الاتجاه الذي أشار إليه البندول مُشدِّدًا على حركته أكثر فأكثر. توقَّفتُ لمراقبته من جديد، بينما أخذ يتأرجح في الاتجاه نفسه. مشيتُ مُصغِيةً إليك: «ببطء. ببطء. توقَّفي مرة أخرى». لا أدرى

كم مضى من الوقت قبل أن يبدِّل البندول حركته، بصورة لا تكاد تُدرَك، في إحدى المرات التي توقَّفتُ خلالها. دار البندول أخيرًا. بينما عجزتُ أنا عن الكلام، واختلجَت عاطفةٌ قوية غريبة في جسدي كاملًا. كاد دوران البندول يبلغ حدَّ العنف. عند ذاك خفضتُ عينَيَّ، وفي إحباط اكتشفتُ أنه يشير إلى موضع خالٍ، إلى قطعة بلاط في الأرض، كغيرها من القطع. «لا شيء هناك!»، صحتُ. بينما اقتربتَ أنت ممتعضًا، وقلت لي كاللائم: «إنها خواطركِ أنتِ. ابحثي هناك حيثما أشار البندول». انحنيتُ كالتمثال الآلي، عاجزةً عن مخالفتك الرأي. لن أقدر يومًا على وصف ما جرى داخلي آنذاك، وخارجي أيضًا، إذ تراءى كل ما يحيط بي وكأنه يتحوَّل بينما كنتُ أنهض أنا ممسكةً بعقرب الساعة الذهبي بين أصابعي. كان هناك، على الأرض التي بدَت خالية، في الشقّ الممتدّ بين قطعتَيْن من البلاط.

ما هي إلَّا أيام قليلة حتى أتممت السابعة. لم أتمكَّن من إقامة حفل، إذ لم تكُن لي صديقات أدعوهن إليه. لم أفهم السبب الذي جعلك تأبى إرسالي إلى المدرسة بمثل هذا العناد. وجدَت ماما مدرسةً، غير أنك لم تذهب حتى لرؤيتها. لم يكُن لديَّ شيء ضد الراهبات. إذ لم يسبق لي أن عرفت راهبة واحدة. وإن تملَّكَتني رغبة جارفة في الذهاب إلى أي مدرسة، أو بالأحرى... أتدري ما الشيء الذي تحمَّستُ له أكثر من كل ما عداه؟ أن أرتدي ذلك الزي المدرسي الذي رأيتُ بنات كثيرات يرتدينه في المرات القليلة التي أخذتماني خلالها إلى المدينة. لا تدري كم كنتُ مستعدة للتضحية في سبيل ارتداء ذلك الزي المدرسي الأسود ذي الياقة البيضاء الصلبة، والشريط الوردي الفاتح الذي يُلَفّ حول الخصر. ولا سيما ذلك الرداء، الأسود أيضًا، شأن القبعة المستديرة ذات الحافة الصغيرة. كم راق لي أن أتخيَّل نفسي وأنا أرتدي تلك الثياب كما ترتديها سائر البنات، وكأنني واحدة منهن بالفعل. تعوَّدتُ أن أطلق على نفسي اسمًا آخر في مخيلتي. واعتبرتُ «ماري كارمِن» أنسب الأسماء لمدِّ أواصر الصلة بيني وبين أولئك البنات. إذ لمستُ في اسمي، أدريانا، أنه يجعلني شخصًا مختلفًا، استثنائيًّا. لا أدري لماذا لم أجرؤ على طلب

الإذن منك في الذهاب إلى المدرسة قطّ. ربما كان السبب هو ذلك الغضب العارم الذي تتحدَّث به إلى ماما كلَّما تذمَّرَت مُؤكِّدةً أنني أكاد أغدو طفلة همجية. كنتُ كلَّما سمعتُكما تخوضان خصامًا بشأن هذه المسألة، وسمعتُ ماما تصيح مذعورة، أحسستُ بغصة لا تُحتمَل. إذ كانت تتكلَّم وكأن بذرة ذلك الشيء الرهيب قد اتَّخذَت لنفسها عشًّا في داخلي فعلًا، ذلك الشيء الذي يبدو أنه قد روَّعها. في بعض الأحيان، كنتُ أجهش ببكاء مرير وأتجنَّب لقاءها حالما أتذكَّر كلماتها. كرهتُها صراحةً في أكثر من مناسبة. وإن كنتُ في الوقت نفسه أضمر لها الإعجاب وأشعر بسعادة غامرةٍ عندما يخطر لها أن تقبِّلني لدى عودتها من جولة في المدينة أو بعد قضاء المشتريات. أذكر بصفاء استثنائي تلك القبلات وقد امتزجَت بالعطر الذي يلفّها، ورنين أساورها، ونعومة بشرتها وشعرها الأسود المُجعَّد الذي كنتُ أحاول أن أربِّت عليه فلم أتمكَّن من ذلك قطّ.

يومَ أتممتُ السابعة من العمر اكتفينا بالاحتفال بتلك المناسبة فيما بيننا. تناولنا وجبة مسائية مُميَّزة، ذهبتُ قبلها إلى السينما في أولى ساعات المساء، غير أنني لم أذهب معك أنت وماما، كما توقَّعتُ، بل مع خوسيفا وأغوستينا. كان ذلك ثاني فيلم أشاهده في حياتي. ولقد اختارته خوسيفا لأنه يحكي قصة قديسةٍ: جان دارك. أي أثر قوي تركَت تلك المرأة في نفسي! سرعان ما شعرتُ برغبة في أن أكون أنا جان دارك. لم أتحدَّث عن غيرها طوال أيام وأيام. كنتُ ألعب وحدي، وأخوض التجارب التي عاشتها القديسة في مخيلتي.

ربما كان ذلك هو السبب الذي جعلني لا أحتمل أن تستولي ماري-نيبيس على الدور الذي اعتبرتُه دوري أنا عن جدارة مطلقة، في ذلك المساء، عندما حبسَتني ماما ونظرَت إليَّ كما لو كنتُ مسخًا. لا أدري إن كنتَ قد التقيتَها يومذاك، لأنك لم تخرج حتى لإلقاء التحية على ماري-نيبيس وأمّها حين وصلتا إلى البيت. لم تكُن ماما تعرفهما جيدًا، غير أنها شعرَت بقلقٍ بالغ حيال عزلتي، فقرَّرَت أن تعثر على صديقة من أجلي.

في البدء سعدتُ بحضورها، وما إن بقينا وحدنا في الحديقة حتى عرضتُ عليها أن نلعب لعبة جان دارك. إذ كانت هي أيضًا قد شاهدَت الفيلم. «أنا جان دارك»، قالت بنبرة مُتسلِّطة، فاعترضتُ على الفور بطبيعة الحال، لأنني أنا الذي أؤدِّي دور القديسة منذ أيام. كما قلت لها إنني مبتكرة اللعبة. ولكني اضطُرِرتُ إلى التنازل. إذ رفضَت أن تلعب ما لم تكُن هي البطلة.

ما كدتُ أعثر على ما يلزم حتى شددت وثاقها بإحكام إلى جذع شجرة، ونثرتُ حول قدمَيْها أعشابًا وأغصانًا يابسة وضعتُ وسطها كثيرًا من الأوراق. هممتُ بإشعال عود الثقاب، وماري-نيبيس تراقب تحرُّكاتي بارتياب. بدأت تؤدِّي دورها، وتخطب بشيء لم أسمعه. بلغَت من السخط حدًّا جعلها لا تسمح بأي حوار. وأخيرًا أضرمتُ النار في الحطب. ما كادَت تظهر ألسنة اللهب حتى راحت تبكي باستماتة. «ألم تريدي أن تكوني جان دارك؟»، صرختُ فيها. «الآن تصبحين أنتِ القديسة، ولكن بحقّ!». وإذا

كل نساء البيت يظهرن فجأةً، بينما انطلقَت أصوات عنيفة تسبّني في آن واحد وقد اختلط بعضها ببعض. وفي غمرة تلك الكلمات المتشابكة، تعالَت نبرات حانية تواسي ماري-نيبيس. وعندما هدأ الصياح أخيرًا، أخذَت ماما تتحدَّث إلى صديقتها عني بضمير الغائب، وكأنني لا أستحقّ أن توبِّخني مباشرةً. «أي شيء فعلتُ في حياتي حتى أستحقّ ابنة كهذه!»، مضَت تحدِّث الهواء، بصوت مفعم بالأسى، وهي تجرّني إلى داخل البيت جرًّا. ألقَتني، من دون حتى أن تنظر إليَّ، في حجرة بلا نوافذ، شبه خاوية، بدَت وكأن لا غاية منها إلَّا معاقبتي. انصرفَت ماما وأوصدَت الباب بالمفتاح. تركَتني وحدي في تلك الظلمة، فاستلقَيتُ أرضًا وساقاي إلى الباب. بقيتُ على تلك الحال، أركل وأصرخ، وأنادي شخصًا لا يمكن أن يكون إلَّا أنت. في النهاية حضرتَ أنتَ مُحاوِلًا أن تمسح دموعي بمنديلك، ولكن عينَيَّ قد خلَتا من الدموع: إذ لم تكُن صرخاتي إلَّا صرخات غضب. «الآن تحكين لي السبب الذي جعلكِ تفعلين ما فعلتِ. ألم تنتبهي إلى الأذى الذي كان من الممكن أن تتسبَّبي فيه لتلك البنت؟». حدَّثتَني بجدية بالغة، ولكن نبرة صوتك العطوف سمحَت لي بمعانقتك والشعور بالارتياح. وحده وجودك ساعدني على مصالحة ذلك المسخ الذي رأيتُه يتبدَّى في داخلي أمام عينَي ماما، إذ كانت وكأنها مرآة لا تعكس إلَّا تلك الصورة المُروِّعة التي بدأت أصدِّقها، الصورة التي امتلكتَ أنت القدرة على أن تخلِّصني منها.

لم يتحدَّث إليَّ أحد طوال عدة أيام، حتى أنتَ بدوتَ شاردًا، ناسيًا أمري. بينما امتنعَت خوسيفا حتى عن تحيَّتي، وأنا على يقين من أن ماما قد تظاهرَت بتجاهلي. كنتُ أتهرَّب منهما وأبحث عن ملاذات مختلفة ألتجئ إليها، فينتهي بي المطاف إلى المطبخ في كل مرة، مع أغوستينا، التي نأت بنفسها عن مؤامرةٍ خفتُ أن تكون أنتَ أيضًا شريكًا فيها. لا تدري كم سعدتُ حين أدركتُ أنني كنتُ مخطئة. ذات مساء جئتَ إلى الحديقة باحثًا عني. «ماذا تفعلين؟». «لا شيء. أنظرُ إلى ماء الفسقية. لا أشعر برغبة في عمل أي شيء»، أجبتُك. «تشجَّعي إذن، لأن عليك أن تعملي كثيرًا طوال الأيام القادمة»، قلتَ لي. عند ذاك أعلنتَ بحماس أنك سوف تصحبني إلى مزرعة يملكها بعض المعارف، طلبوا منك أن تتكهَّن بوجود الماء وموقعه في تلك الأرض. سبق لي أن مضيتُ برفقتك عدة مرات لحضور تلك الطقوس التي سعيتَ لأن تحملني على المشاركة فيها. وعلى الرغم من ذلك، كنتُ أعرف أن مساعدتي مُجرَّد لعبة عندك، بينما أنظر إليك ممتلئةً بالإعجاب، من مسافة لا يمكن قطعها. أما في هذه المرة، فلقد طلبتَ مني أن أساعدك بحقٍّ في تلك الشعائر، حيث أستخدم البندول بغرض العثور على موقع الماء. وإذا بي أدرك أن هناك عالمًا استثنائيًّا لنا وحدنا، أنا وأنت. لم أشعر بالقرب من أحد في أي وقت كما شعرتُ به آنذاك. لم يقتصر شعوري بالتواؤم وإياك على ذلك النشاط الذي تراءى لي مألوفًا وساحرًا في آن، للمفارقة، بل إن ذلك الشعور قد امتدّ إلى أمر آخر مشترك بيننا: سمة الشرّ. إذ كنتَ أنتَ في نظر باقي سُكَّان البيت وزائريه كائنًا غريبًا، مختلفًا،

عُرِف عنه إنه محكوم بالعذاب الأبدي، ولذا دعَت الضرورة إلى الصلاة من أجل خلاص روحه على الأقل. حتى أنا كنتُ أنتمي إلى تلك الفئة من الكائنات، بطريقة ما. سمعتُ صوت ماما ينعتني بـ«المسخ»، وأدركتُ بأي هولٍ تتأمَّل المصير الذي سوف أنتهي إليه، حسبما قالت. كنتُ أعرف أنني شريرة في تلك النظرة المستفهمة التي ترمقني بها خوسيفا، وفي وجه أغوستينا عندما تُحضِر لي وجبة مسائية أو كوبًا من الحليب قبل النوم، وبعد أن أُعاقَب على أمرٍ ما. كانت تبقى معي في صمت آنذاك، وهي لا تجرؤ على أن تتركني، أو تبقى طوال اليوم معي، وأنا التي ما كان أحد يحضر ليتمنَّى لها ليلة هانئة، ولا حتى أنت. لعلَّك لم ترَ كم تشبَّثتُ بك في الحياة وكم اعتبرتُك الكائن الوحيد الذي أحبَّني حبًّا غير مشروط، وأنت المُستغرق دائمًا في أمور أخرى لا أعرفها، في ذلك الألم الذي لم تواتِني الجرأة على سؤالك عنه يومًا. وربما كان هذا هو السبب الذي جعلني قادرةً على التحلِّي بذلك الصبر الذي كثيرًا ما أُعجبتُ به في شخصك. تدرَّبتُ على استخدام البندول، واحتملتُ ساعات التدريب الوئيدة الثقيلة. قاومتُ الإحباط والتعب لأنك بقيت إلى جواري، وأودعتَ فيَّ الثقة التي استطعتُ أن أتحلَّى بها أنا أيضًا في النهاية.

أذكر أنني قد سألتُك عشية رحلتنا إلى الريف: «وماذا لو أنني لم أعثر على شيء؟». «إذن، فلا ماء في تلك الأرض»، أجبتَني أنت، وألهمتَني طمأنينةً جعلَتني أشعر بالتفوُّق على كل شخصٍ في هذا العالَم.

جئتَ تناديني والوقت لا يزال فجرًا، فوجدتَني مستيقظة في انتظارك. إذ كدتُ لا أنام طوال الليل. خرجنا مع خيوط الفجر الأولى، ونسائم الصباح المُثلَّجة تلفح وجهي. نسيتُ وشاحي، فعقدتَ أنت وشاحك حول رأسي، ولم تترك إلَّا عينَيّ مكشوفتَيْن. كان رجلان في انتظارنا خلف السياج. سمحا لنا بركوب سيارة سوداء، ومضيا بنا إلى أرض شبه خالية. لم يستغربا رؤيتي، فسألتُ نفسي عما إذا كانا يعرفان أنني أنا الذي سأفتِّش عن الماء من أجلهما. سرعان ما عرفتُ أنك لم تخبرهما، بل إن الأمر قد ساءهما بشدة، بالحكم على الاعتراضات التي أدليا بها من دون أدنى مراعاة لي. رحتُ أراقبك وأنت تخلع القفاز وتُخرِج البندول من جيب معطفك، وكأنه مُجرَّد شيء كغيره من الأشياء، فلم تلقِ إليهما أدنى بال. هدَّأني أسلوبك. لم يخطر لك أن تنطق باسمي إلَّا عندما حانت اللحظة التي يجب عليَّ أن أتدخَّل فيها. «اسمها أدريانا، وهي أصغر «زُهرية» في إسبانيا». كنتَ في مزاج رائق جدًّا، فابتسما لسماع كلماتك. وعلى الرغم من ذلك، فما لبث كلاهما أن أبدى لي صمتًا لمستُ فيه ارتيابًا. تناولتُ البندول وأنا أحاول إظهار سلاسة كنتُ أتحلَّى بها فعلًا، وإن خُيِّل إليَّ أنني قد فقدتُها تمامًا أمام نظرة هذين الرجلَيْن. حاولتُ التركيز، فلاحظتُ أنني أرتجف. أغمضتُ عينَيَّ لأنسى أمرهما، وعند ذاك جاء صوتك لمساعدتي. جاء وكأنه نغمة ناعمة تجتاح ذهني وتزيل عنه الخواطر والمخاوف. أما ذلك الجرس الدافئ الذي جاءت به كلماتك فأخذ ينطفئ حتى ران صمتٌ مطبق. عند ذاك أحسستُ وكأن جسدي كله قد صار هواءً، وأصبح لا وزن له،

بينما صفا ذهني تمامًا. فتحتُ عينَيَّ، وإذا بكل شيء يبدو لي استثنائيًّا في القرب والسكون. أذكر العشب الضارب إلى الصفرة وسط كتل الطين الصلبة أسفل البندول. أحسستُ بملمس الأشياء كلها بمُجرَّد النظر إليها. بدأ البندول يتأرجح، بينما ساد سكون مطلق وسطنا. عند ذاك استغرقتُ في تلك الطقوس التي أعرفها بالفعل، ومضيتُ أهتدي بتوجيهات البندول الذي كان يرشدني، وأتوقَّف بين الحين والآخر، حسب إرشاداتك، حتى بدأت أنتبه إلى الدوران المُرتقَب، ذلك الذي بدأ طفيفًا للغاية، حتى صار أكثر اتساعًا وعنفًا في آخر الأمر. عند ذاك رفعتُ رأسي، والرجلان يتأمَّلانني بفضول ودهشة، بينما فقدتُ أنا الشعور نحوهما بالخوف. أذكر أنني نظرتُ إليهما بإمعان، وأعلنتُ لهما أن الماء الذي يريدان يقع في ذلك الموضع بالتحديد، تحت قدمَيَّ، وكأنني قد انتصرتُ عليهما في خصومة. لم ينبسا بكلمة واحدة، ربما لأنهما لم يجدا من الوقت ما يكفي للإتيان بردِّ فعل. إذ شرعتَ أنت في قياس العمق الذي يجب أن تصل إليه البئر للعثور على الماء، ولم تَرتَبْ في اكتشافي لحظةً واحدة.

أذكر أنني شعرتُ كالسكرَى، بينما تراءت لي تلك الأرض في غاية الجمال، تلك الأرض القاحلة المنبسطة التي كادت تخلو من الألوان، وفرغَت من النباتات والأشجار. كنتُ على يقين من التوفيق الذي حالفني، مع أنك استغرقتَ عدة أسابيع حتى أكَّدتَ لي ذلك التوفيق الذي بقي كالسر بيني وبينك في خاتمة المطاف. حتى ماما لم أخبرها بشأنه، وإن لم أدرِ لذلك سببًا. أعتقد بأنني لم ألمس فيها

إعجابًا كافيًا بتلك القوى التي صار كلانا يملكها آنذاك. بل إنني رأيتُها لا تلقي إلى الأمر بالًا في بعض الأحيان. زد على ذلك أنها، في تلك الأيام، ما عادت تحدِّثني عن شيء سوى المناولة الأولى[1]، التي لم تهمُّني بقدر تلك الأمور التي علَّمتَني أنتَ إياها. خفتُ أن تنتبه ماما إلى ذلك التفضيل من جانبي. وإن لم أستطِع أن أخفي رغبتي الجارفة في ارتداء ذلك الثوب البديع الذي يليق بملكةٍ، حسبما قلتَ لي أنت حين رأيتَه، ذلك الثوب الذي صُنِع من أجلي في المدينة وجرَّبتُه عدة مرات. أعتقد بأن باقي تفاصيل المناولة الأولى لم تُثِر حماستي بسبب الاستعدادات شديدة الضجر التي أخضعَتني لها خوسيفا طوال أيام وأيام، إذ حاولَت أن تكون مرشدتي الروحية. لم أحتمل حفظ تعاليم كنسية عصية على الفهم. ولقد أغضبني أشدّ ما أغضبني ذلك التعذيب الذي أطلقَت عليه خوسيفا اسم «امتحان الضمير»، الذي يقوم في الأساس على التشكيك حتى في أتفه أفعالي. أصرَّت على تذكيري بالخطايا التي ينبغي لي أن أعترف بها[2] قبل المناولة الأولى. «هل أردتِ قتل ماري-نيبيس؟ هل كنتِ تعرفين أنها قد تحترق وهي على قيد الحياة؟». وأمام ذلك الاحتمال الذي كانت تذكِّرني به كل يوم، امتلأت نفسي هولًا، ورحتُ أتخيَّل الطفلة المسكينة وهي تلقى حتفها وسط ألسنة اللهب، الشيء الذي لم أرِده قطّ، بكل تأكيد. جرحَتني أسئلتها وجعلَتني أشعر بأنني

---

(١) المناولة: أي تناوُل القربان، وذلك من الأسرار المُقدَّسة عند المسيحيين. (المترجم)

(٢) الاعتراف بالخطايا أمام الكاهن أيضًا من الأسرار المُقدَّسة عند المسيحيين. (المترجم)

مُتَّهمة ظلمًا. ولكني لم أقدر على الدفاع عن نفسي. إذ كانت أفعالي مُعبِّرةً أكثر مما ينبغي. ولذا بِتُّ أخرس وأتهرَّب منها كلَّما عجزتُ عن احتمال المزيد.

أبدَت لي خوسيفا صرامة بالغة، وإن صرتُ الآن أفكِّر أنها لطالما كانت على تلك الحال، حتى بينها وبين نفسها. أما أنتَ فكدتَ لا تعاملها مطلقًا. لا أذكر أنك قد بادلتَها أكثر من كلمتَيْن. قلَّما دار الحديث في حضورك، بطبيعة الحال. إذ كنتَ تفرض صمتًا مفعمًا بتوتُّرٍ شديد... رأيتُك سعيدًا مع ماما في بعض المرات، عندما كنتما تذهبان في جولة على الطريق، أو تلعبان الشطرنج، وتخوضان تلك المباريات اللانهائية الصامتة التي كثيرًا ما ضقتُ بها. لولا الشكاوى التي كنتُ أسمع ماما تُسِرّ بها إلى خوسيفا لاحقًا، لأجزمتُ أنكما تصلان إلى مشارف السعادة في تلك اللحظات، على الأقل. كانت تشكو صمتك، الذي يبدو أنه لم يبقَ لها سواه من الأوقات الطيبة التي أمضيتماها معًا. أما صديقتها، فلم تتردَّد في الإقرار بأنها مُحِقَّة. كنتُ أمقتُ خوسيفا، ومنذ تولَّت مسؤولية إعدادي الروحي، صارت تحاكمني بقسوة لا تلين. كنتُ أجيبها في ضيقٍ صائحةً بتلك الكلمات التي لمستُ فيها أنها تثير حفيظتها هي وماما. علمًا مني أن خوسيفا لن تلبث أن تخبرها بمسلكي، وتؤلِّبها عليَّ في كل مرة. ذات مرة قالت لي: «لو استمررتِ في تعذيب أمِّك بهذه الطريقة، لقضَت نحبها». وإزاء صمتي أردفَت سائلةً: «ألا تحبّينها؟». «لا أحبّها!»، أذكر أنني أجبتُها وأنا أكزّ على أسناني. «لا أحبّها، لأنها لا تحبّني! كما

لا أحبّكِ أنتِ أيضًا أيتها المشعوذة!». أما هذه الكلمة، «مشعوذة»، فكانت تترك في نفسي أثرًا عصيًّا على الوصف متى نطقتُ بها مُوجَّهةً إلى تلك المرأة الرصينة المُوقَّرة كالقديسة. في تلك المرة، ما لبثتُ أن سارعتُ باللجوء إلى مكان أشعر فيه بالأمان، مع أنها تعرفه، مكان أملكه ملكية مطلقة، ساعدتَني أنت على بنائه بالعِصي والأفرع الجافة. إنه الكوخ الذي بقي صامدًا، وحيدًا، شبحيًّا، وظلَّ قائمًا خلف البيت بعد أن هجرته أنا، ساكنته الوحيدة، وحتى بعد موتك.

في تلك الأيام، أظهرَت لي ماما شرودًا وجفاء أشدّ من المعهود. بدَت مستاءةً بشدة. أما سلوكها الذي وجدتُه مألوفًا جدًّا في واقع الأمر، فلقد أورثني غصةً وكأنها نشيج حبيس عاجز عن الانطلاق. وفي النهاية، كنتُ أجلس في أحد الأركان، حيث أترك نفسي كليًّا لبكاءٍ مُحرِّر، عذب، مرير، فتسألني ممتعضةً متى عثرَت عليّ: «لماذا تبكين؟». بينما أدلي أنا بالرد نفسه في كل مرة: «لأنه شيء يروقني!». أما لو اقتربَت مني خوسيفا، فكانت ترشقني بواحدة من عباراتها الأثيرة، من دون حتى أن تتوقَّف: «ابقي على هذه الحال، ولسوف ترين...». وأمام تلك العبارة المبهمة التي تحوي في باطنها اتهامًا مُسلَّمًا به، كنتُ أخرس من فرط الغضب.

وأخيرًا حان اليوم الذي تنتهي فيه وقاحة خوسيفا، تلك التي تغوص دائمًا في أفعالي وخواطري مُنقِّبةً عن الخطايا. صبيحة ذلك اليوم، استحوذ عليَّ التوتُّر بسبب كل شيء: الثوب الرائع الذي سوف أرتديه، ولأنني مُضطرَّة إلى الاعتراف بخطاياي لأول مرة وأنا ما زلت لا أدري ماذا أقول، ولأنني فكَّرتُ فجأةً أن تلك الطقوس التي تنتظرني قد توقظ في نفسي قوى تشبه تلك التي أظهرتَ أنتَ لي.

وبينما رحن يجعِّدن خصلات شعري بالمكواة، لفحن جبيني في سهو منهن. كانت ماما أشدّ توتُّرًا مني، وبدا أن خوسيفا تدير كل شيء. أعدَّت أغوستينا المائدة من أجل الفطور في حجرة الطعام المجاورة لمكتبك، تلك التي لم تكُن تُستخدَم قطّ. وإذا بأجواء احتفالية تغمر كل شيء.

كانت سيارة أجرة تنتظرنا خلف السياج. «بابا لن يأتي، أليس كذلك؟»، سألتُ ماما في تسليم، علمًا مني أنه لا يحبّ الكنائس. «بل إنه سوف يأتي بالطبع!». أجابتني مُتحمِّسة. «ولكن السيارة لن تتَّسع له أيضًا. لاحقًا يأتي بدرَّاجته». حسبتُه مُجرَّد عذر. إذ لم أتخيَّلك يومذاك وحدك على الطريق، وكأنه يوم كغيره من الأيام. نظرتُ إلى الخلف عدة مرات في أثناء القدَّاس الإلهي، فلم أرَك. لم أرَك إلَّا في النهاية، ونحن نهمّ بالخروج، إذ لمحتُك في الخلف، واقفًا عند المقعد الأخير، بعيدًا عن الجميع. وقفتَ ناظرًا إلى الأرض، وقد بدَت عليك أمارات التعب، بثيابك التي ارتديتَها كيفما اتَّفق. لم تكُن مُستعِدًّا للاحتفال. غير أنني لم آبه لذلك، إذ رأيتُك وسط ذلك الغبش الذي أحاط بك، فتراءى لي وكأنك تعاني ضربًا من اللعنات. ولأول مرة خفتُ أن تلقَى العذاب الأبدي حقًّا. عند ذاك، بعد أن تعبت من تلاوة الصلاة الربَّانية التي لا تجدي نفعًا مرات كثيرة من أجلك، خطر على بالي أن أعقد مع الرَّب اتفاقًا، فقدَّمتُ له حياتي مقابل خلاصك أنت، وبذلك أموت قبل بلوغ العاشرة: وإن لم أمُت بحلول ذلك الوقت، فذلك يعني أن أحدًا لم يسمعني في تلك

اللحظات. اقتربتُ منك بالانتهاء من الطقوس، فلم أملك السيطرة على الدموع التي انسابَت إلى ثوبي. شعرتُ بسعادة حقيقية. عانقتَني أنت هناك، وقلتَ لي باسمًا: «تبدين كالملكة». وددتُ لو أقول لك: «لقد ضحَّيتُ بحياتي من أجلك، ونلتَ أنتَ الخلاص». غير أنني عانقتُك في صمت. ومعًا، خرجنا إلى الشارع.

خلال الفطور، كانت ماما في غاية السعادة. كما حضرَت ماري-نيبيس برفقة والدَيْها، وأصدقاء آخرين، قلائل جدًّا. كنتَ حاضرًا وسطهم، وإن التزمتَ الصمت. وعلى الرغم من ذلك، سبقتَ الجميع إلى الاختفاء. شعرتُ بأنني قد صالحتُ ماري-نيبيس، فذهبنا في جولة معًا. أذكر أنني كنتُ أُطلِعها على الكوخ وأحكي لها كيف بنيناه أنا وأنتَ، حين سألَتني وهي لا تلقي إلى حديثي بالًا: «لماذا بقي والدك مكانه في النهاية ولم يتلقَّ المناولة معك؟». «لأنه يُصاب بالدوار في الكنائس»، أجبتُ منزعجةً من نبرة الانتصار التي نطقَت بها تلك الكلمات، إذ لمستُ فيها اتهامًا مُوجَّهًا إليك. «أكذوبة!»، أجابَتني ملأى باليقين، بلا أدنى ريب، شعورًا منها بأنها مدعومة برأي الكبار. وأمامها وجدتُ نفسي وحيدةً، إلى جوارك، ولكن في مواجهة الناس كلهم تقريبًا، أولئك الذين تخيَّلتُهم نسخة مطابقة من ماما، ومن خوسيفا، ومن الزائرات اللاتي يحضرن إلى البيت بين الحين والآخر، فلا تخرج أنت لتحيتهن أبدًا. «لا يذهب إلى الكنيسة أبدًا. إنه مُلحِد شرير. سوف يلقى العذاب الأبدي!». تراءى لي أنها ما زالت ترغب في إضافة شيء، ولكني لا وقفتُ

مُصغِيةً إليها، ولا تركتُها تركض هاربةً كما وطَّنَت هي النية. بل إنني جذبتُها بعنف، وسحلتُها من شعرها بشدة. حاولَت أن تدافع عن نفسها، فلم أحسّ بضرباتها. لا أدري أينا كانت أقوى من الأخرى، ولكن لا شكّ أنني كنتُ أشدّ غضبًا. وإذا بفكرة خاطفة تتبادر إلى ذهني على هيئة صورة: شجرة التين الشوكي، التي كانت خلفي، لا تبعد عني إلَّا بضع خطوات. بدهاء، وجَّهتُ تحرُّكاتي إلى شجرة التين الشوكي، ورحتُ أدفع ماري-نيبيس نحوها. لم أرَها وهي تسقط، على علمي بأنني دفعتُها إلى أوراق النبات الشائك. رفعَت صوتها بالصراخ أعلى مما فعلَت وهي تؤدِّي دور جان دارك. كنتُ أرتدي ثوبي الأبيض الذي يليق بملكةٍ. وفي تلك المرة، عرفتُ أنني أمتلك كل الحق. ما زلتُ أذكر كيف خرجتُ للقاء النساء المُقبِلات صوبي، ضدي، لنجدة ماري-نيبيس. «لا يمكن لهذه الحمقاء أن تعود إلى هنا!»، قلتُ لهن وأنا أقف في وسط الدرب، وأتعمَّد سدّ طريقهن رغبةً مني في شلِّ حركتهن أيضًا، بلا شيء سوى إرادتي وصوتي. بقين حائرات. بينما أفلتَت ماري-نيبيس من شجرة التين الشوكي ثم جاءت إلينا سائرةً ببطء، وساقاها منفرجتان بشدة، وذراعاها ممدودتان إلى الجانبَيْن. أورثَتني تلك الصورة حسرةً. لمستُ فيها أنها تبكي ألمًا وخوفًا بحقٍّ، لا عن كبرياء، كما خطر لي في البدء. «لقد قالت إن أبي شرير، وإنه سوف يلقى العذاب الأبدي». قبل الانتهاء من هذه العبارة، شعرتُ بضيقٍ لأنني مُضطرة إلى تبرير موقفي أمام أولئك النساء، اللاتي كانت ماما وسطهن، وما عدن ينصتن إليَّ، وإنما انصرفن بكل ما لهن من انتباهٍ إلى الطفلة التي شاء

نصيبها أن تغدو ضحيتي مرة أخرى. لم تقُل لي أيٌّ منهن شيئًا، كما لم يحتفين بي. شعرتُ بتلك اللامبالاة وكأنها أقصى درجات الازدراء لألمي. بقيتُ في الحديقة وحدي، أراقب النساء اللاتي مضين مبتعدات، وكل منهن تسدي إلى الأخرى نصائح مُتعجِّلة لنزع الأشواك من جسد الطفلة. أزمعَت النساء سكب الزيت على جسدها لانتزاع الأشواك بقدرٍ أكبر من السلاسة. عند ذاك شعرتُ بأن ماري-نيبيس سوف تبقى على حق دائمًا عند جميع الناس في هذا العالَم.

وبعد ذلك اليوم، أصبحَت ماما تقول عني صراحةً إني أمثِّل لها خيبةً لا مفرّ منها. أذكر أن زمنًا طويلًا رتيبًا قد بدأ آنذاك، زمنًا تراءى وكأنه قد علق في أفعال أبدية، في حين مضى كلٌّ منا يكرِّر نفسه يومًا إثر يوم، حتى أنا، وأنا التي كنتُ طفلةً آنذاك. كان لكلٍّ منا لفتاته وكلماته. وعلى الرغم من ذلك، فما هي إلَّا سنتان حتى صرت أتذكَّر ذلك الزمن بحنين حقيقي -ذلك الزمن الذي تراءى وكأن شيئًا لا يحدث فيه- إذ وقعَت مأساةٌ كبرى أطاحت بتلك المجموعة من الأفعال المُتبلوِرة.

كنتُ قد أتممتُ التاسعة حين أخبرَتك العمة ديليا من إشبيلية بأن جدَّتي، أمَّك، تحتضر. سرعان ما ذهبتَما أنت وماما، فلم تعودا كسابق عهدكما قطّ. رجعتما شاحبَيْن، مُتَّشحَيْن بالسواد، في حدادٍ بالجسد والروح. وأمعنتَ أنت في اعتزال الآخرين أكثر فأكثر. كما صرتَ تخلد إلى النوم في مكتبك دائمًا، وتأكل هناك أحيانًا، في غير أوقات الطعام. بينما أوصدَت ماما على نفسها باب حجرتها، غير أنها لم تفعل ذلك من أجل النوم -إذ بدأت نوبات الأرق الطويلة التي أصابتها آنذاك- وإنما كانت توصد الباب على نفسها لتنخرط في البكاء وتلعنك. لم تتذمَّر مني أنا، بل من شيء آخر لم أفلح في كشف طلاسمه. عرفتُ أن امرأةً أخرى كانت في حياتك. وإن لم يبدُ لي الأمر من الأهمية بحيث يُفجِّر تلك الكارثة التي أُعلِن عنها في البيت. رويدًا رويدًا، اكتشفتُ أن السبب مختلف، اكتشفتُ أنه شيء لم يأتِ أحدكما على ذكره قطّ، وإن لوَّحتما به في الشجارات التي دبَّت بينكما، فصار موضوعًا لا ينضب وسرًّا في آن. على الرغم من ذلك، وبفضل السهوات التي وقعتما فيها، والعداوات القائمة بينكما، استطعتُ أن ألمح -من خلال العبارات المبتورة في حضوري بغتةً، وأوقات الصمت المشحونة، والكلمات التي تحمل معاني

مُبطَّنة كنتُ ألتقطها في الحال- أن الشيء الذي جعل بينكما فراقًا نهائيًّا على صلةٍ وثيقةٍ بتلك المرأة التي كانت في ماضيك، غلوريا باييه، التي سمعتُ اسمها أول ما سمعتُه حين مزَّقَت ماما رسالة من تلك المرأة في حضورك، ولم تسمح لك بأن تقرأها. لملمتَ أنت مِزقَ الورق المتناثرة على الأرض، كما يلملم الشحاذ عملات معدنية مُلقاة على الأرض باحتقار، حسبما أفترض. ولمَّا انصرفَت ماما باكيةً، بقيتَ أنت هناك، في الردهة، جاثيًا على ركبتَيْك، جالسًا على كاحلَيْك. مضيتَ تحاول ترقيع الرسالة، فلم تلاحظ أنني أراقبك من مكاني عند الباب. خفتُ أن ترحل من دوني ذات يوم. رأيتُك هرِمًا، ورأيتُك في الوقت نفسه لا حول لك، وكأنك طفل صغير. اقتربتُ منك سائلةً: «أتريدني أن أساعدك؟»، قلتُها وأنا لا أدري جيدًا أي شيء يمكنني فعله. وعلى الرغم من ذلك، استطعتَ أن تبتسم وتعانقني بعطف. عند ذاك اتَّخذتُ قراري بأن أنتظر ساعي البريد كل يوم، فتولَّيتُ استلام الرسائل ووضعها على الطاولة الصغيرة في الردهة، كالمُعتاد. وأخيرًا وصلَت رسالة من غلوريا باييه التي ظهر اسمها في خانة المُرسِل. أخفيتُ الرسالة وطويتُها بإحكام في جيب ثوبي، وحين رأيتُك تعبر السياج، سبقتُك إلى مكتبك حيث تركتُها على الطاولة. كرَّرتُ العملية نفسها عدة مرات. عرفتُ بأنني متواطئة وإياك، فقرَّبني ذلك منك مرة أخرى. لا تدري بأي لهف كنتُ أنقِّب في أغراضك، وأفتِّش في كل شيء، الكتب، والدفاتر، والملفات. شعرتُ برغبة جارفة تدفعني إلى قراءتها أنا أيضًا... حتى إنني وصلتُ إلى حدِّ استخدام البندول.

وأمضيتُ ساعات أهيم في حجرتك، من جانب إلى آخر، فلم أعثر على شيء. صار في إمكاني الدخول إلى مكتبك متى شئت، إذ لم يعُد هناك من يراقب البيت. وتجاهلَتني ماما بقدر ما تجاهلَتك أنت أيضًا. أما أغوستينا فكانت أشدّ بلادةً من أن توبِّخني، بينما انصرفَت خوسيفا إلى نَسْخِ عظات كاهنٍ تشعر نحوه بالإجلال، بخطٍّ مثالي.

نسيتُ أمر الرسائل رويدًا رويدًا، إذ انقطعَت عن الوصول. بينما استأنفَت ماما الدروس التي كانت تلقيها عليَّ. قالت عني إنني الالتزام الوحيد في حياتها، وبدأت تنظر إليَّ بأسًى دفين، وكأنها لا تملك إلَّا عمل القليل من أجلي. قرَّرَت أن تنساك، وأوكلَت العناية بملبسك ومأكلك لأغوستينا التي تذمَّرَت بسبب الأشغال مفرطة الكثرة الواقعة على عاتقها وحدها.

أذكرك في تلك الحقبة أشدّ وحدةً من أي وقت، مهجورًا، وكأنك زائد عن حاجة البيت. هرمَت ثيابك، فزحفَت التجاعيد إليها وإليك معًا. وشيئًا فشيئًا، ظهرَت على وجهك ابتسامة جديدة، قاسية، زائفة، كثيرًا ما ظلَّلَتها لحيةٌ في وجهك غير الحليق. ذات يوم رأيتُك تصل في وقت مُتأخِّر جدًّا، في الليل تقريبًا. لم تحضر على الغداء يومذاك. لا شكّ في اعتقادك بأن أحدًا لن ينتظرك. رأيتُك تعبر السياج، وقد جئتَ تترنَّح. لم تأتِ سيرًا على قدمَيْك، بل مضيتَ تاركًا جسدك يتساقط على هذه الساق تارة، وتلك الساق تارة، مُراوِحًا بينهما. وإذا بي أشعر بأنك قد هجرتَني لأول مرة.

ذات يوم رحلَت خوسيفا، واختفَت معها العناية القليلة التي كانت توليها البيتَ. أخذتُ على عاتقي ريَّ الحديقة وجزَّ الأعشاب الضارة. وهكذا بِتُّ أتسلَّى في عزلتي المطلقة. تدهورَت الأشياء كلها والأشخاص بالتوازي، بتأثير قوة عليا. وبخلاف النسيان الذي خيَّم عليكما، بقي من ذلك الزمنِ في ذاكرتي الغبارُ الكثيف، والدلاء والأواني والقدور التي كانت أغوستينا تتركها دائمًا تحت مواضع تسرُّب المياه، والضوء الحزين الضارب إلى الصفرة الذي يغطِّي البقع المنتشرة في الأسقف والرقع التي تساقط طلاؤها في الجدران، ونباتات الحديقة التي لم أنجح في إنقاذها، فظلَّت في أمكنتها ميتة، أضف إلى ذلك وقع الأخفاف التي كانت أغوستينا تجرجرها بتثاقل في أرجاء البيت كلها، والبرد الذي يتسلَّل حتى إلى الروح. لم تعاود أنت إمساك البندول قطّ، بينما لم أجرؤ حتى على تذكيرك به. خفتُ أن أسمعك تصرخ كما كنتَ تفعل لأي سبب. صرتَ حادّ المزاج، وحالت لفتاتك الغاضبة دوني ودون الاقتراب منك. أذكر أن ماما قد جاءتني يومًا للتشديد على ذلك الرعب، فأسرَّت إليَّ بسرٍّ لأول مرة، وقالت: «رباه! يا للهول! لقد قال لي بابا إنه لولاكِ لأطلق على نفسه رصاصة». عند ذاك بدأتُ أنتبه إلى ذلك السأم الذي مضيتَ تجرجره في عملك كل يوم. هل فعلتَ ما فعلتَ من أجلي وحسب؟ وجدتُها تضحية أكبر مما ينبغي. حتى أنت قد تحدَّثتَ بنفسك ذات يوم، بمرارة وتسليم، عن درس اللغة الفرنسية الذي تكرِّره يوميًّا أربع مرات. ذات مرة قلتَ لي ونحن نتناول الطعام: «ما دمتِ تريدين عمل شيء جدير بالاهتمام في الحياة، فلا

تتزوَّجي ولا تنجبي عندما تكبرين». ثم أردفتَ وكأنه مُجرَّد تعقيب تافه: «... وإن لم يتعدَّ ذلك الشيء امتلاك حرية الموت متى شئتِ». قلتَها بصوت أكثر انخفاضًا، وكأنك لا تخاطب أحدًا. لم أنسَ تلك الكلمات اليائسة قطّ. لم أفكِّر في شيء مُتعلِّق بتلك الكلمات التي جاءت وكأنها ضربات وحشية لم أملك أدنى ردٍّ عليها.

كنتَ تنصرف طوال الإجازة إلى الامتناع عن عمل أي شيء، بطريقة مذهلة، فتنفق الساعات جالسًا على أريكة، بينما أنت تنضح مرارةً لا رادّ لها، وتُظهِر شقاءك. حاولَت ماما الدفاع عن نفسها، فاستأنفَت القراءة وصارت تجري مكالمات هاتفية طويلة مع خوسيفا التي تتَّصل بها كل ليلة من المدينة. كانت تذهب للقاء أمِّ ماري-نييبيس، أو تذهب في جولة وحيدة، بعيدًا عن البيت، في كثير من الأحيان. أما أنا فلم أحاول حتى أن أفهمكما. إذ تراءى لي الأمر برمته كارثة طبيعية، كالعاصفة التي لا أملك أمامها سوى الهرب.

في النهاية تمكَّنتُ من الالتحاق بالمدرسة. لم تتعرَّف أنت بذلك المكان حيث أمضيتُ ساعات طوالًا من أيامي بطريقة شديدة الاختلاف عما سبق أن تخيَّلتُه من قبل. ربما تلقَّيتُ ذلك الدرس المُفجِع لأول مرة في حياتي آنذاك، ذلك الدرس الذي ما زلتُ لم أنجح في تعلُّمه برغم الأعوام التي مرَّت. ما أبعد الرغبة عن الواقع الذي نعيشه متى حسبنا أننا قد حقَّقناها! ولكنك لم تعرف شيئًا عن المعاناة التي تكبَّدتُها. كانت معاناتي من الشدة حتى إنها فاضَت عن كلِّ كلمةٍ، وأغرقَتني في صمت يشبه ذلك الذي حبستَ فيه نفسك بعناد حتى الموت. لم أتمكَّن يومًا من التطرُّق إلى عجزي عن الاقتراب من باقي البنات، أو التطرُّق إلى ذلك المزيج من الغربة والخوف الذي أرغمني على البقاء وحيدة في أوقات الراحة دومًا، أبعد ما يمكن عن الأخريات، بينما أتحاشى النظر حتى إليهن، وكأني أملك محوهن من الوجود عن طريق التجاهل. كم مرة بكيتُ كلَّما اقتربَت مني راهبةٌ عطوف وحاولَت أن ترغمني على اللعب مع زميلاتي. كانت خطوة لم أنجح في قطعها طوال العامَيْن الأول والثاني. في الصفّ الثاني أصبحتُ قادرة على الكلام، أو بالأحرى التلعثم ببضع كلمات ردًّا على أي سؤال يُطرَح في غير اكتراث.

ولكن، فيمَ يهمّ كل هذا! الآن أكاد أُسَرّ بذلك. لقد تملَّكنا ذلك الصمتُ الذي فرضتَه أنتَ علينا، الصمت الذي سكن البيت وكأنه واحد منا، وبات كثيفًا كالجسد. تعلَّمتُ العيش في ذلك الصمت، ومن المُجحِف ألَّا أضيف أنني لو ذقتُ شيئًا من السعادة الواقعية، فلقد ذقتُها بالتحديد في صمت وعزلةٍ كلاهما تام. ولذا فأنا لا أملك أن ألومك، وأنتَ الذي علَّمتَني بما لك من شطط، إذ توغَّلتَ بلا هوادة في ذلك الدرب الذي لا يطرقه سوى قلائل، الدرب الذي أفضى بك إلى تحقيق الميتة المنشودة.

وطبعًا، لو بذلتَ أنتَ شيئًا من الجهد كي تخفي أنك قد نسيتَني، لبِتُّ مُمتنَّة لك إلى الأبد. لا أقول بضرورة السؤال عن حياتي في تلك المدرسة التي ذهبتُ إليها ضد مشيئتك، على الرغم من كل شيء. ولكن، كان في وسعك أن تقول شيئًا عن التقديرات التي حصلتُ عليها. ألم تفاجئك يومًا؟ في العامَيْن الدراسيَّيْن الأول والثاني، كنتُ أحصل على التقدير نفسه دائمًا، في كل وقت وكل صفٍّ: الدرجة النهائية. اعتبرَت ماما أنه الشيء الصحيح، ببساطة، وإلَّا كانت أي درجة أخرى أحصل عليها معيبة. أما تلك القاعدة، التي يبدو أنها وُجِدَت من أجلي وحدي، فلقد أمعنَت في زيادة الاختلافات الأليمة القائمة بيني وبين سائر طالبات الصفّ. وشعرتُ بالحسد نحو زميلاتي علمًا مني بتحرُّرهن من مثل هذا العبء.

في بعض الأحيان، كانت تنتابني رغبةٌ في الهرب منكما، فأحلم بطرائق مختلفة للهرب، مستحيلة دائمًا. ذات يوم اتَّخذتُ قراري

بالهرب من عينَيْك، مع أنني بقيتُ في البيت. لعلّي بذلك الاختفاء الزائف أردتُ أن أجد في نفسك احتياجًا يائسًا إلى العثور عليَّ. وهكذا اختبأتُ عن الأنظار تحت أحد الأسِرَّة، فتزوَّدتُ بالصبر، ووطَّنتُ نفسي على ألَّا أخرج من هناك لوقت طويل. في البدء خفتُ ألَّا تنتبهوا حتى إلى غيابي. وأخيرًا بدأتُ أسمع دبيب الخطى المُتلهِّفة الباحثة عني، وصوت ماما التي راحت تسأل عني، وصوت أغوستينا التي أكَّدَت أنها لم ترَني طوال المساء. كان هدفي أن أبلغ الليل وأنا لا أزال تحت السرير، علمًا مني أن الظلام سوف يضاعف خوفكم. راحت ماما تتَّهمني: «إن هذه الطفلة على استعداد لعمل أي شيء». الأمر الذي بدا أنه يُزعجها مني أكثر مما يثير قلقها بشأني. أما أنتَ فكنتَ في مكتبك، ولم تخرج للبحث عني، على اقتناعي بأنهم قد أخبروك بأمر اختفائي. طال الانتظار، وإن داخلني شعور طيب علمًا مني باختفائي عن الجميع. لم أعرف قطّ فيما فكَّرتَ أو بما شعرتَ أنت خلال تلك اللحظات التي يظهر أنها لم تترك في نفسك أدنى أثر. كان الوقت فجرًا حين عثرَت عليَّ ماما التي أصابت في ظنِّها تلك المرة، وهي التي طالما أساءت الظنَّ بي. «كيف استطعتِ أن تفعلي بنا ما فعلتِ!»، صرخَت في وجهي وهي تكاد تبكي. «هيا، اذهبي لتناول العشاء»، قالت لاحقًا، في ما يشبه الاحتقار. ومن دون أن تزيد على قولها كلمةً أخرى، انصرفَت إلى حجرتها.

شعرتُ بالهزيمة، وامتلأت نفسي غضبًا. ولكني حين جلستُ إلى المائدة ورأيتُك أمامي، تنظر إليَّ في غير اكتراث، أدركتُ في

عينَيْك شقاءً فوق احتمال البشر. وبات ألمي تافهًا، هزليًّا، إذ لم يكُن أمري بأكثر من أكذوبة.

ما هي إلَّا أيام قليلة حتى جاءت العمة ديليا. تعوَّدَت أن تحضر خلال الإجازة المدرسية لتمضية بعض الوقت معنا. كنتَ تخاطبها وكأنها بلهاء. وإن لم تكُن كذلك -أتدري؟- بل إنها تميَّزَت بالعطف والكتمان. لم تعرف العمة شيئًا عن الأشرار والأخيار، بل ظهر عليها أنها تحبّ الجميع، ولا سيما أنت. تلقَّيتُ منها القبلات التي لم أتلقَّ سواها في طفولتي. ولكنك لم تسمح لها بأن تبقى في البيت طويلًا في تلك المناسبة. لقد ضقتَ بكلِّ حضور بشري، حتى حضوري أنا. مع أنني قد تحمَّستُ لوجودها، وذهبتُ معها في رحلات. كما صحبَتني العمة ديليا إلى منتزه المدينة. كانت تأتي إلى فراشي في الليل وهي تحمل كوبًا من الحليب الدافئ المُحلَّى بكثيرٍ من السكر، فتجلس إلى جواري وتحكي لي القصص حتى أستغرق في النوم. تمنَّيتُ لو ذهبتُ معها إلى الأبد في تلك المرة. لا تدري كم بكيتُ عندما رحلَت، عندما عرفتُ أنك قد طردتَها، وإذا بمسحةٍ من الكراهية المُوجَّهة إليك تنبثق في نفسي لأول مرة. أقول «مسحة»، لأنك استطعتَ لاحقًا أن توقظ في نفسي عداوة أشدّ قوة مما شعرتُ به يومذاك. رويدًا رويدًا، من دون أن تنتبه أنت إلى ذلك، رحتُ أتَّصل بالعالَم الخارجي، وإن يكُن على استحياء. ذات يوم دُعِيت إلى حفل. غير أنك لا سمحتَ لي بحضور حفلات، ولا بالذهاب إلى السينما مع الصديقات، ولا بالخروج في جولات بالدرَّاجة. وهكذا

تأقلمتُ على التخلِّي بفضلك أنت. في بعض الأحيان ذهبتُ إلى الاعتقاد بأنني لست في حاجة إلى شيء واحد من أولئك الذين يُطلَق عليهم بشر. واستطعتُ أن أعيش في سعادة بمثل هذه القناعة على مدى فترات طويلة. ليس الأمر أنك قد فرضتَ عليَّ أوامر الحظر تلك لأنك عُدتَ إلى الانشغال بي مرة أخرى. كلا، فما هي إلَّا بلادة من جانبك، تجلَّت آنذاك بفرض قواعد صارمة في وحشية، وإن اعترفتَ في الوقت نفسه بأنك لا تؤمن بها، بل وذهبتَ إلى السخرية منها مرات كثيرة. كنتَ تدفعني إلى الآخرين في ما يشبه الازدراء. «يجب عليكِ أن تعيشي في هذا المجتمع، وسط أولئك الناس الذين يفكِّرون ويتصرَّفون على هذا النحو. يجب عليكِ أن تصبحي مثلهم، ما لم تريدي أن تكوني بائسة». لا تدري كم ملأتني بالهول تلك الكلمات شديدة الزيف التي نطقتَ بها في غضب. كانت كلماتك تنضح بنفور لا نهاية له نحو سائر البشرية، ومع ذلك أردتَ مني أن أكون وسطهم. فرضتَ عليَّ تسليمًا لا معنى له، وكأنني لا أستطيع أن أتوقَّع المزيد من الحياة. أفرغتَني من كل شيء، وتركتَ في روحي ثقبًا تعيسًا. تركتَني وحدي، أهيم وسط ترهات، والسأم يثقلني كما لو كان جسدًا على جسدي.

ولكن بين كل أوامر الحظر التي فرضتَها عليَّ، كبرتُ حالمةً بالآمال، ملأى برغبات مبهمة لا أملك تحقيقها. في الرابعة عشرة كنتُ قد بلغتُ طور الأنوثة. أذكر أن أول حذاء بكعب لي كان أعلى وأصعب الأحذية التي انتعلتُها في حياتي. وُلِدَت في

نفسي حياةٌ مختلفة من ورائك، ولاحظتُ أنني ألقى من الحبِّ في الشوارع أكثر مما ألقاه في البيت. كنتُ أمرّ بباب إحدى المدارس كل يوم، فيتغنَّى الفتيان من أجلي بحماس قائلين: «لو ذهبَت أدريانا مع غيري، لتبعتُها برًّا وبحرًا...». تأثَّرتُ بتلك الأمور الصبيانية بطريقةٍ جعلَتني إذا رأيتُهم أسرع الخطى ما وسعني ذلك، في محاولة للهرب من تلك العاطفة التي أخافَتني. ذات يوم اكتشفتُ صورة لي معروضة ومُكبَّرة في واجهة أحد المتاجر. ذهبتُ لطلب نسخة كنتُ في حاجةٍ إليها، فأخبروني بأن بعض الفتيان قد طلبوا عشرين نسخة. الأمر الذي حيَّرني، ولكني خفتُ أكثر ما خفتُ أن يصلك الخبر. كما عرفتُ أن عددًا كبيرًا من مكاتب مدرسة الفتيان يحمل اسمي منقوشًا بالأحرف الكبيرة. ذهبتُ إلى التفكير أنني جميلة لأول مرة في حياتي. وإن كنتُ أراقب صورتي على المرايا، في أضواء مختلفة، فلا أرى سوى الوجه المعهود. وبينما أنا عائدة على الطريق، كنتُ ألمحك في بعض الأحيان تنتظرني نافد الصبر أمام السياج، والمساء مُقبِلٌ، فتخبرني بالكذب في كل مرة، مُتلعثِمًا بمزاج عكر، زاعمًا بأنك قد خرجتَ في جولة، على علمي أنك تتلصَّص عليَّ. ولكني لم آبه لذلك. ذات مرة خرجتُ في جولة برفقتك. كان الليل قد أقبل، وران صمتٌ مفعم بالتوتُّر بيننا منذ البدء. مضيتُ أدفعك صوب أشجار الكافور، أكثر موضع أميل إليه في ذلك العالَم الخارجي. بدوتَ وكأنك قد نُفيت من أرض ما، فرحتَ تمشي هائمًا، وأنت لا تدري إلى أين تولي وجهك. سرعان ما رجعنا إلى البيت. كنتُ أهفو إلى الافتراق عنك. لا أدري أي انفعال غريب أرغمني

على تجنُّبك آنذاك، وأي ألم أعمى عصي على الفهم كان يجتاحني كلَّما اضطُرِرتُ إلى البقاء في حضورك. ذلك أن جميع المرارة التي يمكن للمرء أن يتخيَّلها، والاحتقار اللامتناهي، قد اتَّخذا لنفسهما عشًّا في نفسك بصورة جلية للعيان. أما صمتك المفعم بالغمّ، فكان مأهولًا بأصوات خبيثة أسمعها وحدي، دون الآخرين. وأما سكونك التامّ فلم يكُن سوى اختلاجة أوجالٍ تراءت وكأنها قد جُمِّدَت في أسوأ لحظاتها. في بعض ليالي الدراسة أو الأرق الطويلة، كانت تهزّني أَنَاتُك الآتية من ذلك السبات الذي استغرقتَ فيه، أو مَن يدري من أين جاءَت تلك الأَنَّات! لا بد أنها لم تكُن من هذا العالَم. كم مرة وددتُ لو أقترب منك وأعانقك في صمت، وأداوي ذلك الألم الذي لم أملِك له فهمًا! وإن لم أتمكَّن من التوجُّه إليك في السنوات الأخيرة من عمرك إلَّا بكلمات معدودة، مُجرَّد كلمات، تافهة دائمًا.

شعرتُ بأنني في غاية البعد عنك. وعلى الرغم من ذلك، فلقد حلمتُ بك مُشرقًا قريبًا ذات مرة. كنتُ في الخامسة عشرة آنذاك، ولم يكُن شيء واحد قد تبدَّل بيننا. حلمتُ بأن الكوكب بأسره قد غرق، أما المياه التي استحالت أداة دمار قوية فلقد غمرَت وجهَ الأرضِ كاملًا. طفَت على صفحة المياه شذرات هائمة مُتبقِّية من كل ما وُجِد حتى ذلك الوقت. كانت تلك هي النهاية. وإذا بقارب يظهر على مسافة بعيدة. قارب في غاية الصغر، جئتَ أنت على متنه مُجدِّفًا ببطء، آتيًا صوبي. وبعدما ساعدتَني حتى أصعد إلى متن القارب، وأكون إلى جوارك، تابعتَ التجديف تائهًا في ذلك البحر الذي لا يحدّه حدٌّ. لم تقُل لي كلمة واحدة. وكأنك لا تلقي أدنى بال لتلك الكارثة. عند ذاك تمنَّيتُ شيئًا: لو كنتَ زوجي. بينما طافت ببالي خاطرة مُؤدَّاها: أنك سوف ترفض، لأنك قد تبدَّلتَ كثيرًا... والآن، بطريقة ما، صرتَ تولي أهمية أكبر مما ينبغي للقواعد التي تحكم هذا العالَم، القواعد التي تمنعك من ذلك. ثم أفقتُ من نومي وقد تملَّكني ذلك الحزن.

أذكر أن خوسيفا قد رجعَت بعد زمن قصير. لم ترغب أنت في وجودها بالبيت. لا أدري كيف، ولكنك طردتَها. بكَت ماما،

ولعنَتك. ومرة أخرى، لوَّحَت بذلك الشيء الذي بقي سرًّا أجهله، واقترن باسم غلوريا باييه. تركتَ جسدك ينهار على الأريكة، مهزومًا، وعدتَ إلى الاستغراق في الخرس. بينما خرجَت خوسيفا إلى الطريق في الليل، وحيدة، حاملةً حقيبتها. ولأول مرة سمعتُ ماما تطلب منك أن ترحل أنت أيضًا. صبيحة اليوم التالي، في وقت مُبكِّر جدًّا، عثرتَ على تلك المرأة التي كرهتُها أنا أيضًا. وجدتَها وهي لا تزال مستغرقة في النوم برغم ضوء الصباح، مستلقية على الرصيف، وقد أمسكَت الحقيبة بيدها على حافة الطريق، أمام البيت. عدتَ ثائرًا، ورحتَ تصرخ في كل أرجاء البيت. أما هي فبقيَت وسطنا. في تلك المرة جاءت صموتًا، ساكتة، وأعتقد بأنها أبَت الصلاة من أجلك. هزل جسدها واتَّسعَت عيناها أكثر مما ينبغي. لم تعُد تغطِّي شعرها بغطاء الرأس، وصارت تحوم في أرجاء البيت ليلًا كالطائر المشؤوم. ومع أنني لم أحبّها يومًا، فلقد استيقظ في نفسي نحوها شعورٌ أليم، مزيج من الخوف والأسف. أوصدتَ باب مكتبك على نفسك، ولم تعاود الخروج من هناك لغير العمل أو التنزُّه في الريف. عشتَ بعيدًا عنا تمام البعد. وكأنك نزيل في فندق كغيره من الفنادق. تعودتَ الذهابَ في جولات مُطوَّلة على الطريق ساعةَ المغيب، فوجدتَني برفقة فرناندو في واحدة من تلك الجولات، عندما اقترب مني وتحدَّث إليَّ لأول مرة. كنا نتلاقى في الطريق إلى المدرسة على مدى شهور، فيطيل كلٌّ منا النظر إلى الآخر، من دون حتى أن يبادره بالتحية. لم أكُن في حاجة إلى أكثر من ذلك حتى أقع في الحبّ، وظننتُ بأن هذا ما جرى لي آنذاك. في مساء

ذلك اليوم، استوقفني فرناندو حين التقينا، وقال إنه يودّ أن يسير برفقتي. أراد أن يودِّعني لأن أسرته ذاهبة للعيش في مدينة أخرى. كان في غاية الحزن، اعتقادًا منه بأننا لن نلتقي مرة أخرى أبدًا. وإذا بي أكتشف وجودك عن بعد. رأيتَني فجئتَ مقتربًا منا، بخطًى حثيثة. طلبتُ منه أن يذهب فورًا، وقد تملَّكني الذعر. لم أتمكَّن من فهم قسوتك. كانت تلك هي المرة الوحيدة التي ضربتَني فيها مدى الحياة. لم أتوقَّع كل هذا العنف. شعرتُ وكأنك غريب عني، بينما لم تؤلمني صفعاتك أدنى ألم. أذكر أنني قد انطلقتُ راكضةً، ولم أبكِ، بل إنني هربتُ منك صراحةً، وتركتُك وحيدًا في غبش الليل المُقبِل. وصلتُ إلى البيت من دون أن ألتفت إلى الوراء. وحين أوصدتُ على نفسي باب حجرتي، لم أجد في نفسي شقاءً ولا غضبًا ولا خوفًا ولا ضيقًا. لم أجد فيها شيئًا. وذلك أقرب ما عرفتُ من الموتِ مدى الحياة.

من ذلك اليوم فصاعدًا صرتُ أتهرَّب منك، بينما بدأتَ أنت محاولات خجلى للاقتراب مني. لاحظتُ مسحة من الحنان القديم في عينَيْك اللتين غشيهما حزن دفين آنذاك. وسمعتُك تدلي بتعقيبات لا أهمية لها، مُوجَّهة إليَّ، وإن لم يبدُ أنك تتوقَّع ردًّا. كنتُ ألزم الصمت. لم ندرِ كيف نتحاور فيما بيننا. الآن وقد صار الفهم لا يجديك نفعًا، أستطيع أن ألمح في لفتاتك الخرقاء ذلك الألم العصي على التصوُّر الذي اختنقتَ به، أستطيع أن ألمحه في تلك اللهفة التي أردتَ أن تعبِّر لي بها عن شيء في غاية القوة، شيء يفيض عن الكلمات. ذات مساء، والليل مُقبِلٌ، وبينما رحتُ أوصد قفل السياج، سمعتُ صوتك يناديني. جاء صوتك من الحديقة، وقد سعيتَ أنت جاهدًا ليبدو مبتهجًا. اقتربتُ منك حائرةً. كنتَ جالسًا على المقعد الخشبي العتيق، تحت شجرة الصفاف، أمام الفسقية التي جفَّت منذ أمدٍ بعيد. صارت أجواء الموت تخيِّم على ذلك الذي كان قبل أعوام مسرحًا سحريًّا للعبتنا الأثيرة. لم يبقَ سوى إكليل الجبل الذي يرسم دروب الحديقة والأشجار والشجيرات التي لم تكُن في حاجة إلى شيء سوى الماء المتساقط من السماء للنجاة. أما سائر النباتات فماتت، وبقيت هناك، جافةً، منسيةً في أمكنتها، من حيث

تغوي الذاكرة، وتعيد بناء شيء لن نستردّه أبدًا. «مرحبًا!»، قلتُ لك. أردتُ أن أسألك ماذا أنت فاعل، وإن لم يكُن لسؤالي غرضٌ إلَّا كسر ذلك الصمت. ولكني لم أزِد على قولي شيئًا، علمًا مني أنك لم تعُد تفعل شيئًا. جلستُ أمامك، على حافة الفسقية، وأنا أحدس بهيئتك وسط الغبش. «لا أدري لماذا خلَت الفسقية من الماء»، قلتَ لي. «لا أحد يذكر العناية بالحديقة»، أجبتُك نافدة الصبر، فتابعتَ أنتَ قائلًا: «حقًّا. لقد جفّ كل شيء، مع أنه كان في غاية الجمال! أتذكرين؟». كنتُ أذكر طبعًا، ولكني لم أحِر جوابًا. وإذا بي أحسُّ بغصة لا تُحتمَل فجأةً. عند ذاك تجرَّأتُ على سؤالك لأول مرة: «ماذا بك؟ لماذا أنت في هذه الحالة الرثَّة دائمًا؟». نظرتَ إليَّ متفاجئًا، وكأنك مندهش لأنني قد انتبهتُ إلى الألم الذي استحوذ عليك. كنتَ تبدو منزعجًا، عاجزًا، فلججتُ أنا في السؤال: «حين رجعتَ من إشبيلية في تلك المرة، تبدَّل كل شيء في حياتك. ماذا جرى هناك؟». «فارقَت أمي الحياة، كما تعرفين». قلتُ لك إنني لا أعني ذلك، بل أعني شيئًا آخر، ذلك السرّ المُقترِن باسم غلوريا باييه. سألتُك: «أتذكر؟ كنتُ أحمل رسائلها إلى مكتبك لئلَّا تمزِّقها ماما». «أنتِ التي كنتِ تحملينها إليَّ؟». سألتَني، ثم أردفتَ قائلًا: «إن لكِ خيالًا جامحًا يا أدريانا». تراءى من الواضح أنك ترغب في إنهاء تلك المحادثة، ولكني لججتُ في السؤال مرة أخرى: «أهذا سبب شقائك؟». ابتسمتَ لي بمرارة قائلًا: «انظري، إن أسوأ صنوف الشقاء هو ذلك الذي يتكبَّده المرء بلا سبب مُحدَّد. ذلك الذي يأتي من كل مكان، ومن لا شيء على وجه التحديد. وكأنه لا وجه له».

«لماذا؟ أعتقد بأن لكل شيء سببًا دائمًا، سببًا يمكن التحدُّث عنه». قلتُ لك بلا أدنى اقتناع من جانبي، وشعرتُ بخيبة رجاء لأنك بدلَّتَ مسار سؤالي. رحتُ أتلفَّت حولي، وتقبَّلتُ صمتك مرة أخرى، بينما طاف بخلدي أنه ربما لا يمكن بلوغ السعادة في أي مكان. خيَّم الليل، والقمر محاق، والعتمة كالضباب المُتجهِّم الذي أسبغ عليك في عينَيَّ تعبيرًا لا يلين. رحتُ أرنو إليك بإمعان، في محاولة مني للتخمين بما لم تُفضِ به إليَّ. ومن خلال ذلك الحجاب الذي أسدله الغبش رأيتُ أعوامًا كاملة تمرّ على وجهك الهرم. في تلك الليلة شعرتُ بأن الزمن كان خرابًا منذ الأزل. وأنا لم أعرف شيئًا آخر. الحديقة، والبيت، وسُكَّان البيت، حتى أنا، بأعوامي الخمسة عشر... كان يلفّنا المصير نفسه، مصير الموت، الذي تراءى أنه يجرفنا وإياك. حين دخلنا إلى البيت، طلبتَ مني أن أخبر أغوستينا بأنك لن تتناول العشاء. ثم ودَّعتَني وكأنها ليلة كغيرها من الليالي.

بعد ساعات أفقتُ على صرخات ماما التي راحت تناديك. قالت إنها قد سمعَت دويَّ رصاصة. رصاصة واحدة. عرفتُ من فوري أنك قد فارقتَ الحياة. خرج الناس باحثين عنك عدة مرات. وإن حال المطر والظلام والخوف دون العثور عليك.

في الفجر جيء بجثمانك هامدًا. أطلقتَ على نفسك رصاصة، كما سبق أن أعلنتَ منذ أعوام. لم أرَك، على علمي بأنهم قد جاءوا بك، لأن صمتك قد حان، مريرًا، حجريًّا، وامتدّ إلى كل أرجاء

البيت، وظلَّ باقيًا على قيد الحياة حتى بعد موتك، بطريقة ما. لم تسمح لي ماما بالخروج من حجرتي. لم يكُن حظرًا: وإنما طلبَت مني ذلك بمودَّة، فشعرتُ نحوها بالامتنان لذلك. تملَّكني خوفٌ جارف إذ تأكَّد لي أن كل ما رأيتُه عن بعد كالحلم كان حقيقة. وعلى الرغم من ذلك، عجزتُ عن المقاومة. كنتَ أنتَ المُمدَّد على الفراش هناك، في الأسفل، في مكتبك، كعهدك دائمًا. وعند ذاك -أتدري؟- اتَّخذتُ قراري بألَّا أؤمن بالموت، في عمل خارق من أعمال الإرادة، وهكذا تبقى أنت على قيد الوجود أبدًا. نزلتُ لرؤيتك وقد وطَّنتُ النية على معانقتك، والأمل يحدِّثني بأنني سوف أكتشف اختفاء ذلك الكابوس. ولكني حين بلغتُ بابك، الذي كانت العزلة المطبقة تغمره في زمن غير الزمن، لم يُسمَح لي بالدخول. كان هناك غرباء، بدا لي وكأنهم قد استولوا على جسدك: الطبيب الشرعي، واثنان من رجال الشرطة. كان أحدهما شديد الهزال، فانتبهتُ إلى أن السروال أوسع كثيرًا مما يليق به. كما ترى، في تلك اللحظات، لحظات الآلام القصوى، تجلَّى أمام عينيَّ واقعٌ تافه، لعلّ أحدًا لم ينتبه إليه. مضى الطبيب يكتب تقريرًا على ورقة، مُؤدِّيًا وظيفته بلا اكتراث، بل إنه قد أخطأ غير مرة، فمزَّق الورقة وأخرج ورقة أخرى من دفتره. راح يدوِّن بيانات لا يمكن أن تهمَّ أحدًا. تراءى لي الأمر برمّته انتهاكًا، شيئًا مُروِّعًا بقدر الموت نفسه. لم ألمح من وجهك إلَّا أنفك وفمك المُطبَق، عن بعد، بينما كانت ضمادة بيضاء تحجب عينَيْك، وجبينك، وباقي رأسك. رحتُ أردِّد في صمت، مرة تلو أخرى، كالتمثال الآلي: «لا وجود للموت، لا وجود للموت». أقفل النافذةَ واحدٌ

من أولئك الرجال لأنه يشعر بالبرد، وكأن لذلك أدنى أهمية. فرغ الطبيب من إعداد تقريره، ثم تبادل بضع كلمات هو وماما التي أخذَت تبكي من الأعماق. وددتُ لو أقترب منها، وإن أحسستُ بأن أطرافي قد شُلَّت. وقع عليَّ عبء وحشي، لم أتمكَّن من حمله. وعندما غادر الرجال، أوصدَت ماما النوافذ، في حين أضرمَت خوسيفا بضع شمعات. ملأني الغبش بالآمال، إذ جاء من ذلك الغبش، ومن صلوات المرأتَيْن، هاجسٌ حدَّثني بأنني سوف أعثر عليك ذات يوم، في مكان آخر، جديد.

أوصدتُ باب حجرتي على نفسي طوال أيام. أردتُ أن أذكرك وسط الأحياء. وأبيتُ المشاركة في تلك الإعدادات المُقدَّرة لك، تلك العلامات التي لا يخطئها المرء، علامات الوداع الأبدي. سرعان ما حضرَت العمة ديليا، فتعاونَت العمة وماما فيما بينهما، وأرغمتاني على الاستمرار في الحياة. إذ هجرتُ نفسي إلى سكونٍ مطلق، مستلقيةً على الفراش. وقعتُ مرتَيْن في تلك الحالة الرهيبة التي لم أعرفها إلَّا فيك وفي نفسي: ذلك الجمود التام، جمود الجسد الذي لا يقدر على الإتيان بأدنى حركة، ولا إصدار صوت واحد. ذات مرة بقيتُ مفتوحة العينَيْن، عاجزةً حتى عن إغماضهما. وبعد ذلك الهول قفزتُ من فراشي مُسرِعةً إلى خارج الحجرة. رحتُ أمشي كالمجنونة في محيط البيت لساعات، وأنا لا أنتبه إلى شيء سوى حركتي. عند ذاك اتَّخذتُ قراري بالذهاب للقائك والبحث عنك وسط الآثار التي تركتَها في مدينة أخرى: إشبيلية. أرادت ماما الذهاب إلى سانتاندير،

فجاء شقيقها ليصحبنا. بينما رجوتها كي تسمح لي بتمضية أيام قليلة مع العمة ديليا، في مدينتك، فقبلَت.

مكثَت خوسيفا وحيدة في بيتنا. أما أنا، فصرتُ صماء عن سماعها، عمياء عن رؤيتها. أزالت خوسيفا صورك الفوتوغرافية، ثم باغتُّها وهي تُسلِّم ماما الصور، وتنصحها في قسوةٍ بتمزيقها وبدء حياة جديدة، فانصاعت ماما لها. أصابها مسٌّ من الجنون، وراحت تبكي باستماتة، من دون أن تنتبه إلى حضوري. أدركتُ لأول مرة أن الشقاء الذي تكبَّدَته ماما أيضًا كان أكبر مما يُحتمَل. اقتربتُ منها، فعانقَتني وبكاؤها يشتدّ عنفًا. ثم قالت لي، وكأنها في حاجة إلى تبرير موقفها: «لم يحبّني قطّ».

وحين وصلتُ في اليوم التالي إلى إشبيلية، عرفتُ أنكَ لو كنتَ قد بقيتَ هائمًا في أحد الأمكنة بهذا العالَم، لبقيتَ في تلك المدينة المبنية من أحجار حية، ونبضات سرية. كان في تلك المدينة شيء بشري، أنفاس، تنهيدة عميقة مكبوتة. أما السكان الذين آوَتهم، فبدوا وكأنهم قد انبثقوا منها، وكأنها قد شكَّلَتهم بيدَيْها الألفيَّتَيْن. في حيٍّ معتم -تتسلَّل إليه أشعة الشمس التي تعمي الأبصار منخولةً، آتيةً عَبْر الظلال- هناك يقع بيتك الذي أُقيم وفق الأعراف القديمة، وصُنِع بخامات أصيلة بليَت على مرّ الحيوات التي سبقَتك. كان في باحة البيت الوسطى المرصوفة بالرخام نباتان. أرغمني خريرُ المياه الجارية في الفسقية على التوقُّف، إذ وصلني ذلك الصوت آتيًا من طفولتك. كم مرة غفوتَ وأنت مُصغٍ إليه من حجرتك؟

رافقني ذلك الخرير الهادئ على مدى الأيام التي استغرقتُ خلالها في مشاهِد رأتك وأنت تكبر، ولكنها ما زالت هناك، لا تأبه لموتك، بل إنها ظلَّت تعرض عليَّ ذلك المسرح الذي دارَت فيه حياةٌ عشتَها أنتَ، ولم أعرفها. كان أي شيء يسكن تحت هاتيك الأسقف الخليقة بالأديرة يترك في نفسي أثرًا حيًّا. بدا وكأنها آتية من زمن ينتمي إليك، الأمر الذي أكسبها قوةً أكبر مما للواقع.

تبعتُ العمة ديليا إلى حجرتها كالمُسرنَمة. طلبَت مني أن أساعدها على فضِّ حقيبتها، لعلّها أرادت طرد الأشباح التي حدسَت بوجودها في صمتي. وإذا بي، في مصادفة غريبة، أجدُني أمام الأشياء التي ظلَّ سرُّكَ حبيسًا فيها على مدى أعوام: رسائل غلوريا باييه. لا شكّ في أنها الرسائل التي أنقذتُها بنفسي من أجلك، وأخفيتُها في جيبي. وجدتُها وقد استقرَّت بين صفحات واحد من كتبك. إذ جاءت العمة ديليا بالكتب التي قرَّرَت أن ترثها عنك في حقيبتها. كان في يدي أن أطلبها منها، ولكن لا أدري أي نزوة عمياء جعلَتني أستولي عليها من وراء العمة ديليا، وكأنني لا أرغب في مشاطرة هذه القراءة أحدًا، كائنًا من كان.

كدتُ لا أنام ليلتذاك. سمعتُ صياح الديك فجرًا، هناك، في المدينة.

أغرقَتني رسائل غلوريا باييه في تأمُّلات طويلة. كانت تشير إلى احتمالات وددتُ لو أصدِّقها. كثُرَت في رسائلها الإشارات إلى أمور تُفهَم ضمنًا. وعلى الرغم من ذلك، يتَّضح أنك قد عشتَ معها شيئًا

أقوى كثيرًا من ذلك الذي عشتَه مع ماما. أسائل نفسي كيف كان يصبح معها شكلِ الحياة اليومية، تلك الحياة التي لم تشاطرها إياها. هل كنتَ تموت في تلك الحالة أيضًا؟ عندئذ فكَّرتُ أنه لطالما كان خير الأمور ما بقي منها في حيِّز الاحتمال، ولم يصل إلى الوجود.

لم أجد إلَّا ثلاثًا من السبع رسائل التي كنتُ أذكرها. جاءَت أولى الرسائل التي قرأتها كما يلي:

«عزيزي رافاييل: لقد فاجأتني رسالتك الثانية أكثر من سابقتها. ما زلتُ أعرفك أكثر مما ينبغي. أعرف أنك قد ندمتَ على كلماتك الأولى. ولكن لا يهمّ، فأنا لم آخذها على محمل الجدّ. على مدى عشرة أعوام، افترقنا فراقًا أبديًّا مرات كثيرة، وتصالحنا مرات كثيرة. وإن كانت تلك المرة مختلفة. صحيح أنني قد غبتُ أطول من عام كامل، ولم أراسلك حتى خلال تلك الفترة، ولكنك تعرف تمام المعرفة لماذا رحلتُ. وطبعًا، وجدتُك قد تزوَّجتَ وأنجبتَ طفلةً لتوّك عندما بحثتُ عنك مرة أخرى. أردتَ نسياني، والبدء في حياة جديدة، أكثر هدوءًا، حسبما قلتَ أنت لي. أما زلتَ لا تريدني أن أولي الأمر أهمية؟ يا لريائك! تقول إن بيني وبينك رابطًا لا ينحلّ، يسمو على كل قانون، لا ينال منه الزمن. ولكني أذكر أنك لم تقُل لي حتى إنك تحبّ زوجتك آنذاك، بل اكتفيتَ بتقديم الأعذار الواهية التي تمنعك من البقاء معي. ولماذا يجب عليَّ أن أشاركك أي شيء؟ كنتُ وحدي، وما جرى لي آنذاك لا يعني أحدًا سواي. طلبتُ منك

ألَّا تعود إلى هذه المدينة أبدًا. غير أنني لم أظنُّك مطيعًا إلى ذلك الحدّ، بطبيعة الحال. والآن تقول لي إنك ما زلتَ لم تنسَني. أي جنون هذا! أرفض الإقرار بأن هذه الأعوام كانت ثمرة خطأ بسيط. أنصتْ، أفضِّل ألَّا تكاتبني مرة أخرى، والأهم ألَّا تعود إلى هنا. وداعًا. غلوريا».

أما الرسالتان الأخريان فكانتا في غاية الاقتضاب:

«حتى أنا لم أقدر على ذلك في البدء، ولكني تعلَّمتُ كيف أعيش من دونك. لقد نسيتُك. وداعًا، غلوريا».

«أكرِّر عليك للمرة الأخيرة أنني قد تعبت. لا أقدر على تغيير حياتي، ولا أرغب في ذلك. أنا مُتيَّمةٌ بابني، وسعيدة معه. لا مكان في حياتنا لأحد سوانا. ولا حتى لك أنت. أضف إلى ذلك أنني ما عدتُ أحبّك. وداعًا، غلوريا».

عَبْر تلك الكلمات، وجدتُني أعرف مضمون رسائلك على أكمل وجه، إذ اقترحتَ أن تعود إليها، وتهجرنا. أم تراني مخطئة؟ خلال تأمُّلات الطفولة في ذلك الذي اعتبرتُه سرَّك آنذاك، لم أرَ الاحتمال القائل بقدرتك على أن تهجرني. كم كنتُ أجهلك... وكم كان نظري قصيرًا!

اتَّخذتُ قراري بزيارة تلك المرأة. الآن عرفتُ أنها تعيش وحيدةً مع ابنها. تساءلتُ لو كنتَ أنت والد الطفل، بطبيعة الحال. وإن بدا لي ذلك ضربًا من الشطط، فلو كنتَ أباه ما تجاهلتَه إلى هذا الحدّ.

أضف إلى ذلك أنني لم أعرف كم يبلغ من العمر. الشيء الوحيد الذي ظهر بوضوح أن والد الطفل، كائنًا من كان، لم يسكن معهما.

كان الوقت لا يزال مُبكِّرًا جدًّا. واضطُرِرتُ إلى الانتظار حتى تذهب العمة ديليا لإلقاء دروس التربية الموسيقية والبيانو. عبَرتُ الباحةَ، ورخامُ الأرضيةِ يبدو ضاربًا إلى الزرقة على ضوء الفجر. ولأول مرة، توجهتُ إلى تلك التي كانت حجرتك أنت، هناك حيث أخذ جعران ليليٌّ يحتضر. كان عالقًا في الحجرة، فوطئتُه بقدمي من دون عمد. أما القرقعة الطفيفة الصادرة عن جسده فلقد أثارت في نفسي شعورًا بالنفور لا يحدّه حدٌّ، وأسًى عبثيًّا. طاف بخلدي أنه ساكن حجرة نومك الوحيد، هناك حيث لم يبقَ سوى تلك الآثار التي ما زالت إميليا لم تلقِ بها إلى القمامة بعد. كان في الحجرة بساط باهت، وطاولة ليلٍ عتيقة تنقصها الساقان الأماميتان. عثرتُ في جوفها على حذاء مُشوَّه، أبليتَه أنت من فرط الاستخدام، وأخفاف مُمزَّقة، ومُنبِّه لم يعُد يعمل، وقناع مُجعَّد يشفّ عن وجه بديع ونظرة شيطانية، بين تجاعيد الورق المُقوَّى. وجدتُه طريفًا، فوضعتُه على الطاولة حتى أراه جيدًا. اكتسبَت تلك الأشياء التافهة طلاقةً غريبة أمام عيني، لأنها تبعث شيئًا منك أنت، شيئًا عصيًّا على الكلمات. خرجتُ من الحجرة، وإذا بي أجد إميليا التي أفزعني سكونها الخليق بالأشباح. كانت تقف خلفي وقد التصقَت بالظلام حتى صارت مُسطَّحة كالرسم. «ما الذي تريدين معرفته؟»، قالت بطيبةٍ وهي تعقد ذراعَيْها وتنظر إليَّ بعينَيْها المحمومتَيْن. دُهشتُ لأنها لم تسألني

عمَّا أفعله هناك، في حجرتك التي لم تعُد لأحد، وقد استيقظتُ في مثل هذا الوقت المبكر. خمَّنتُ أنها تعرف سبب فضولي. ولذا كنتُ مباشرةً معها أنا الأخرى: «مَن هي غلوريا باييه؟». «امرأة مجنونة»، أجابَتني وهي تبدي لي ابتسامة مفعمة بالعطف على تلك المرأة التي أحببتَها أنت، وأنا الآن على يقين من ذلك. «لماذا؟»، سألتُها. ولكنها ما عادَت تنصت إليَّ، وإنما نزلَت على الدرج بخطواتها الرشيقة الهادئة.

لا أدري السبب الذي جعلك لا تحدِّثني عنها قطّ، وهي التي ظلَّت تحبّك، على الرغم من غيابك ونسيانك. وبينما رحنا نتناول الفطور معًا، في مطبخ بيتك الواسع المعتم، سألَتني إميليا: «هل طعن أبوك في العمر كثيرًا؟». لم أدرِ بماذا أجيب، إذ اغرورقَت عيناها بالدموع، بينما تركَت في نفسي انطباعًا بأنها لن تسمعني، وكأن مظهرك الأخير لا يهمّ ألبتة. ولكسر ذلك الصمت الدامع الذي فرضَته إميليا، سألتُها: «هل كان ذلك القناع لأبي؟». «أي قناع؟». وما هي إلَّا لحظات حتى تذكَّرَت. «آه! نعم، طبعًا. كان له». وحكَت لي أنك قد ذهبتَ بذلك القناع إلى حفل تنكُّري راقص وأنتَ في الخامسة عشرة. وبعد رحيلك، بقي القناع مُعلَّقًا على الجدار أمدًا طويلًا، لمُجرَّد الهجران. ذات يوم وضعَته في طاولة الليل وسط أغراض أخرى لك أنت، ولكنها عديمة النفع. كانت إميليا تلزم الصمت بين الحين والآخر، فتغيب عيناها في شيء لم أتمكَّن من رؤيته، وإن سعيتُ جاهدةً إلى الحدس به. إذ عرفتُ أنها تتأمَّلك أنت، مُعلَّقًا بخيوط الذاكرة، في عمرٍ لم أعرفه.

كانت إميليا امرأة هزيلة، تمرَّسَت في صمتِ الخادمة وعاداتها، ذلك الدور الذي وجدَت فيه نفسها من دون أن يبدو عليها أي صراع داخلي. في الليل، بينما تعزف العمة ديليا البيانو أو تأوي إلى الفراش، كنتُ أجتمع بإميليا في المطبخ، على دفء الموقد الذي يُوضَع أسفل الطاولة. أما المصباح الذي تتركه مُضاءً في تلك الأثناء، فيتدلَّى من السقف عاريًا، بينما ينساب ضوؤه شديد الخفوت كضوء شمعة. كانت عيناها تكتسبان خواء العميان وهي تتحدَّث عنك أحيانًا، بينما تحدِّقان إلى شيء خافٍ عن عينَيَّ في أحيان أخرى. رحتُ أسألها عنك منذ أول صورة لك، وهي التي شهدَت ميلادك. أغرقتُها بأسئلتي في حالة تليق بالوسيطة الروحانية. وكالعرَّافة الحقيقية، تمكَّنَت إميليا من الوصول إلى مكان غير المكان، لا زمن فيه، هناك حيث ما زالت طفولتك وشبابك ومراهقتك باقية. كانت تملك ذاكرة هائلة، بها مُتَّسعٌ لعالَمٍ كامل عصيٍّ على البلوغ، كعالَم الموتى. كنتُ أغمض عينَيَّ، وأتأمَّلك في عتمة جفنَيَّ وكأنك شبح على قيد الحياة، تستحضره إميليا من أجلي. كادت لا توجَد بيني وبينك كلمات أكثر من تلك التي انبثقَت آتيةً من ذاكرتها، في إشارة إليك أنت طوال الوقت. ولكني لم أجرؤ على البوح إليها بأنني أفكِّر في زيارة غلوريا باييه في ذلك النهار الأول.

انتظرتُ خلوَّ البيت من الجميع حتى أخرج. أذكر أنني توقَّفتُ بضع دقائق على أعتاب الباب وأنا لا أدري إلى أين أولِّي وجهي. وحين سألتُ عن العنوان المكتوب في الرسائل، فوجِئتُ بأنكما

كنتما جارَيْن تقريبًا. لم يكُن ذلك البيت مثل بيتك، بطبيعة الحال، إذ يضمّ ثلاثة طوابق، ويبدو هائلًا، أشبه بالقصور. من خلال الأبواب الثقيلة المواربة، ومن خلف السياج، استطعتُ أن أرى باحة مهيبة قاتمة، بلون الطين. خفتُ ألَّا يكون البيت مأهولًا. ولمَّا عبرتُ الطريق حتى أطلّ على البيت من الداخل، ألفيتُ نظرةً شاخصة إليَّ، فتملَّكني ذعرٌ شديد إلى الحدِّ الذي جعلني أرغب في الذهاب. كان فتى في مثل عمري يناديني وقد أطلّ من نافذة في الطابق الأرضي، على مقربة شديدة. بدا مطمئنًا، مُعتادًا على أن يتوقَّف زوَّارُ تلك المدينة، أجمل مدن الجنوب، إعجابًا بفناء بيته. أعطاني الإذن في تأمُّل فناء البيت أنا أيضًا. الأمر الذي لم أتفَّهمه في واقع الأمر، إذ بدا لي أن أحدًا لم يتأمَّل تلك الفوضى معجبًا منذ أعوام طوال، تلك الفوضى التي اكتشفتُها في الداخل. وعلى الرغم من ذلك المظهر الذي يليق بالأطلال، بدا المكان غريبًا في جماله، وإن خلا من النباتات باستثناء الأعشاب البرية التي تنمو وسط شقوق الأرض. أمعن النظر إليَّ بشدة وجرأة. وسرعان ما عرفتُ أن أحدًا لا يدخل إلى هذا المكان. «هل أنتِ مِن هنا؟»، سألني. «كلا. جئتُ لقضاء بضعة أيام وحسب»، أجبتُه وأنا ماضية في أثره، إذ اتَّخذ قراره بأن يُطلِعني على البيت كاملًا.

مضيتُ أتأمَّل كل شيء وأنا أحدس بظلِّك في ذلك المتحف، متحف الأطلال والهجران، هناك حيث اقتصرَت زينة المكان على الشروخ المُنذِرة في السقف والفجوات المغبرة التي تركَتها لوحات

مختفية. رافقَتني نظرتك على امتداد تلك الردهات الهائلة الخاوية، التي صارت الآن مناطق عبور. بدت الحياة ضربًا من المحال في ذلك المكان. ثم عرفتُ أنهما، الأم والابن، يلوذان ببضع حجرات داخلية، تتوسَّطها حديقة صغيرة، وكأنها معجزة، حديقة تلقى عناية بالغة، ملأى بالأزهار، وكأنها واحة بديعة بقيَت على قيد الحياة في قلب ذاك الخراب.

أما ميغيل -هكذا يُدعَى الفتى- فكان يصغرني بعام واحد. وعلى الرغم من ذلك، بدا وكأنه يكبرني عمرًا، بالحكم على طول قامته ولغته الرصينة العميقة. طلب مني رقم الهاتف عند الوداع، فأبيتُ أن أخبره برقمي في عناد. كان في ذلك الفتى شيء يخيفني، شيء أدركتُه بعد ساعات، عندما بقيتُ وحدي واستحضرتُ صورته، فاكتشفتُ لفتةً عابرة، ابتسامةً خاطفة، حركةَ سهوٍ... وأيقنتُ أنني قد لمستُها فيك أنت. طاف بخلدي أن ميغيل ابنك، ولكني لم أجرؤ على طرح سؤال واحد. خفتُ أن أتأكَّد من الأمر. عند ذاك شعرتُ بأسًى عميق من أجلك. لو كنتُ قد عرفتُ ذلك... ولكن الطفلة الصغيرة لا تُؤتمَن على سرٍّ. كم من الصمت فرضتَ على نفسك حتى تنساها! الآن صارت لديَّ قطعة جديدة لأضعها في أحجيةِ صورتك: لقد كنتَ جبانًا. وإن خطر لي في الوقت نفسه أن شقاءك وموتك يكفِّران عن ذلك. هل عرفتَ أنك لم تكُن على قيد الوجود قطّ بالنسبة إلى ذلك الطفل؟ صورة الأب غريب الأطوار الذي لا يحتاج إليه ذلك الطفل... لقد خلقَت تلك المرأة

عالمًا لحمايته من غياباتك، الأمر الذي أدركتُه منذ رأيتُهما معًا لأول مرة. كانت عائدة من العمل في متجر التحف والقطع الفنية الذي تملكه. دخلَت إلى حجرة ميغيل لتعطيه قبلة، فقدَّم ميغيل إحدانا إلى الأخرى، وحيَّتني هي باقتضاب. ما إن سمعَت اسمي حتى لمحتُ ظلًّا يغشى عينَيْها. لم تحاول إخفاء ما بها، بل إنها سرعان ما سألَتني عنك. «إنه بخير»، قلتُ كاذبةً، وإن تمنَّيتُ لو كانت تلك هي الحقيقة. «هل جاء معكِ؟»، أردفَت وهي تحاول الابتسام. «كلا»، أجبتُها بجفاء. ذهبَت، فبقيتُ مُندهِشةً بجمالها، الذي لم يبدُ مصدره الوحيد وجهها المُتغضِّن، بل إنه جاء من أعماقها أيضًا، من موضع في نفسها، موضع لا شكّ في أنه قد نجا من الزمن.

ذات يوم سألتُ ميغيل عن أبيه، فأجابني في غير اكتراث قائلًا إنه قد مات. لاحظتُ أنه يشعر بالأمان في ذلك العالَم الذي أُقصيتَ أنت منه. عند ذاك أخبرني بأن أباه قد خرج ذات ليلة في نزهة على الشاطئ، بينما ظلَّت أمُّه التي كانت حبلى فيه آنذاك تنتظر الأب في البيت. كانا يقضيان بضعة أيام في بلدة بالشمال. اضطُرَّت إلى الخروج بحثًا عنه، إذ طلع الفجر وهو لم يعُد بعد. لم تعثر إلَّا على سترته الجبردين مُبلَّلة على صخرة. ومنذ ذلك الوقت صارت تذهب إلى الموضع نفسه كل يوم على أمل أن تعثر على أثر له. وإن اضطُرَّت إلى العودة قبَيْل الولادة إلى إشبيلية، وقد اقتنعَت بموته، على نحو ما اتَّفق أهل البلدة جميعًا. لم تعرف المزيد يومًا. استغربتُ أن يتحدَّث بمثل هذه الآلية عن تلك المأساة، وكأنها لا تمتّ إلى

حياته بأدنى صلة. ما لبث أن أردف بمزاج رائق: «إنه لشيء جدير بالفضول، ولكن أبي لا يُرَى في صورته الوحيدة التي نحتفظ بها». لم أفهم كلماته. طلبتُ منه أن يفسِّر لي مقصده، فخرج من الحجرة. وذهب لإحضار الصورة. قال لي أن أقرأ أي شيء ريثما يعود. كان يقصد القصص التي أعارني إياها، تلك التي كتبها بنفسه. أراد أن يغدو كاتبًا، على اعتقادي بأنه كان يعدّ نفسه كاتبًا بالفعل. من المُؤكَّد أنني قد اهتممتُ بكتاباته كثيرًا، وإن ليس إلى الحدِّ الذي يجعلني أنظر إليك في صورة يراك فيها أباه. لم أقرأ القصص التي كتبها، وإنما رحتُ أنقِّب في كتبه. استوليتُ على دفتر مُغلَّف بالمشمع، من دون وجه حق. بدا لي دفتر يوميات، وخُيِّل إليَّ أنه يضمّ اسمي بين أوراقه. لم أخجل من سرقة الدفتر ليلةً واحدة، فاحتفظتُ به في حقيبتي عندما سمعت وقع خطواته على مقربة من الباب. أطلعني على الصورة: حيث كان تينوريو يتغزَّل بـدونيا إينيس[1] من وراء قناعك ذي الوجه البديع والعينَيْن الشيطانيتَيْن. كان حفلًا تنكُّريًا أقامَته غلوريا باييه في البيت نفسه وهي في الخامسة عشرة. عندئذ حكى لي أن أمَّه رأتك من دون القناع الذي كان يحجب وجه أبيه، والحفل في منتصفه، فتأثَّرَت إلى الحدِّ الذي جعلها تبدِّل بثوب الماخا المدريدية التقليدي ثوبَ صديقتها. ارتدَت الثوب والقناع اللذين يُفترَض بهما أن يكونا لدونيا إينيس، وذهبَت تدعوك إلى مراقصتها.

---

(١) إشارة إلى دون خوان تينوريو (الذي يُعرَف أيضًا باسم دون جوان)، ودونيا إينيس، خطيبته في العمل الدرامي الشهير. (المترجم)

أردف ميغيل قائلًا إنكما لم تفترقا منذ ذلك الوقت، حتى فارقتَ أنت الحياة، قبَيْل مولده بقليل. ولكن لا تحسب أنه قد أظهر أدنى قدر من الأسى بكلماته، أو أظهر إعجابًا بحبكما، على نحو ما. كلا. بل إن أكثر ما لفت نظره في صورتك هو الثوب التنكُّري. «كانوا في غاية التكلُّف، أليس كذلك؟»، قال لي. «ولكني أودّ أن أرتدي مثل هذه الثياب، وأقيم مثل هذا الحفل. لو فعلت، فأي ثوب ترتدين؟». «أنا؟ ثوب ساحرة، على ما أعتقد»، أجبتُ حائرةً. «لن تحتاجي إلى أن تتبدَّلي كثيرًا. أعتقد بأنكِ ساحرة بالفعل»، قال ضاحكًا.

ذهبتُ بعد قليل، وحين وصلتُ بيتك كانت العمة ديليا في انتظاري. كنا نخرج كل مساء حتى نجوب المدينة، فتتكلَّم العمة بلا انقطاع، غير أنها لم تأتِ على ذكرك يومًا. في البدء ظننتُها تودّ أن تصرف ذهني، وتُخرِجني من ذلك الذي بدا لها استغراقًا مرضيًّا في الذات. ولكني عرفتُ أنها تخشى الأموات، حسبما أخبرَتني إميليا، بعد أن لوَّحَت إليَّ بإشارةٍ كيلا أذكر اسمك في حضور العمة ديليا، التي كانت تظنّ بأنها قد رأت الجدَّة طافيةً على مياه الفسقية الواقعة في الباحة عقب موتها بأيام قليلة. ومن ذلك الوقت فصاعدًا رحتُ أعتني بالعمة وكأنها طفلة صغيرة، وبِتُّ أرافقها ليلًا، وأرغمها على أن تحكي لي قصص المدينة حتى يغلبها النوم.

ليلتذاك ودَّعتُها حين رأيتُها تكاد تستغرق في النوم. كنتُ أهفو إلى قراءة ذلك الدفتر الذي اعتقدتُ أنه يوميات ابنك. قلَّت

الصفحات المكتوبة في الدفتر، وخلَت إلَّا من ذكر بعض لقاءاتنا، التي لم تجرِ كما جاءت في اليوميات على وجه التحديد، بطبيعة الحال:

«رأيتُها تدخل إلى البيت، فعرفتُ أنها تبحث عني أنا. لم تأتِ إعجابًا بفناء بيتٍ أندلسي شأن غيرها من زوَّار المدينة. ولذا عجبتُ لأنها أبَت أن تخبرني برقم هاتفها. ماذا تريد مني؟ ولماذا تبحث عني؟ فكَّرتُ في أنها ربما كانت صبية مغرورة يروقها التظاهر بالغموض، إذ رفضَت حتى أن تضرب لي موعدًا قائلةً: «ليس هناك ما يدعو إلى ذلك، فمن المُؤكَّد أننا سوف نلتقي». سرعان ما سنحَت لي الفرصة كي أتحقَّق من صحة الأمر. التقينا عدة مرات، غير أننا لم نلتقِ مصادفةً، على نحو ما قد يظنّ المرء، مع الأخذ في الحسبان قرب المسافة بين بيتي وبيتها. كلا. بل إننا التقينا في الأمكنة الأشدة مدعاةً إلى المفاجأة، حيث كان لقاؤها أبعد ما يمكن عن مخيلتي. ولكني مخطئ في ما أقول، فليس صحيحًا أننا كنا نلتقي: بل إنها كانت تنتظرني حيثما راق لها، ومتى راق لها، فأذهب أنا كالمُسرنَم إلى هناك، أينما كانت، وأنا لا أدري، من دون أن تخطر لي حتى على بال، وكأنها تملك قوة كبرى على جانبٍ مني، جانبٍ أنا نفسي أجهله. بعد لقائنا الأول، أمضيتُ يومَيْن هائمًا في غفلةٍ عَبْر الشوارع والميادين حيث تخيَّلتُ أن في إمكاني العثور عليها. لم أكُن قد عرفت أنها تسكن قريبًا مني إلى هذا الحدّ. لم أجد لأدريانا أدنى أثر، فذهبتُ إلى التفكير في أنني لن أعاود رؤيتها أبدًا. عند ذاك

ذهبتُ لأستريح في «باحة أشجار البرتقال»[1]، هناك حيث سبق لي أن بحثتُ عنها سدًى. ولكني عرفتُ أنها هناك قبل أن أراها. حدَّثني بوجودها ذلك الدوار الطفيف، وتلك الخفقات التي تدوِّي كلَّما وجدتُها».

«في اليوم التالي ذهبتُ إلى «أطلال طالقة»[2] وأنا لا أفكِّر حتى في رؤيتها بتلك السرعة. كثيرًا ما ذهبتُ إلى تلك الأطلال مع أمي، لأن كل ما ينتمي إلى زمن لم يعُد قائمًا على قيد الوجود يترك في نفسها ذهولًا. جلستُ على دَرَج المسرح الروماني المتداعي. كنتُ وحيدًا، أشعر بأنني بعيد عن كل شيء. وإذا بأدريانا تظهر ورائي فجأةً. وأقول إنها قد ظهرَت، لأنني لا سمعتُ وقع خطواتها، ولا رأيتُها آتيةً من أي مكان، بل إنها كانت هناك، فجأةً، بلا مقدمات، وابتسمَت لي كما لو أن اللقاء بتلك الطريقة هو الشيء الأكثر طبيعيةً في العالَم بأسره. أما أنا فقفزتُ ذعرًا. أعتقد بأنه لو كان للأشباح وجود، لظهروا بتلك الطريقة التي تظهر بها».

«لم أعرف ماذا يجري. ولم أكُن واعيًا إلَّا بشيء واحد: أنني بين يدَيْها كليًّا. لقد مارسَت عليَّ قوة مميتة، شيئًا أقوى وأقوى من الحبّ. زد على ذلك أنني قد أضمرتُ لها محبةً. الأمر الذي عرفتُه منذ رأيتُها».

---

(١) باحة أشجار البرتقال: بستان مُرفَق بكاتدرائية إشبيلية الحالية. (المترجم)

(٢) طالقة: مدينة رومانية قديمة تقع في إشبيلية الحالية. (المترجم)

«ذات يوم صعدنا عَبْر أروقة الخير الدا[1] من دون أن ينبس أحدنا ولو بكلمة واحدة. كانت غائبة، مُستغرِقة في التفكير، ولم تعِرني انتباهًا. ربما لهذا السبب، عندما وصلنا إلى أعلى، بدأتُ أُطلِعها على المدينة، وأُكثِر من الحديث في غفلةٍ. كنتُ مُتوتِّرًا، وفجأةً خطر لي أن أمازحها قائلًا: «لا بدّ أن إبليس قد ظهر للمسيح في موقع قريب الشبه بهذا حين قال له: "إِنْ خَرَرْتَ وَسَجَدْتَ لِي، أُعْطِيكَ هذه البلدان التي ترى ومجدها وكنوزها جميعها"»[2]. نظرَت إليَّ وهي تشعر بالتسلية قائلةً: «تخيَّل لو كنتُ أنا إبليس، وقدَّمتُ لك ذلك العرض: فبمَ تجيب؟». «لو فعلتِ لخررتُ عند قدمَيْكِ، وتخلَّيتُ عن كل ما عداك»، أجبتُها مُتحمِّسًا، فانطلقَت ضاحكة، ومع أنني لم أفهم ضحكتها، ابتسمتُ ما وسعني ذلك، أي ابتسامة طفيفة جدًّا، بعد أن ظننتُها للحظاتٍ تضحك عليَّ أنا. عند ذاك أخذَت بيدي كالساهية، ناسيةً كل شيء، بطريقة لا تُحتمَل في أخويتها، وسحبَتني إلى الركن المقابل من البرج. طلبَت مني أن أستمرَّ في حديثي عن المدينة. بدَت أكثر اهتمامًا بحديثي منها بشخصي. ولكني أمسكتُ يدها بقوة حين أرادَت أن تفلت يدي. نظرَت إليَّ وقد ارتسمَت على وجهها أمارات الهول التي جعلَتني أتراجع قفزًا. رافقتُها إلى بيتها، فلم تنبس بكلمة أخرى طوال الطريق».

---

(١) خيرالدا: بُرْج كاتدرائية إشبيلية الحالية. (المترجم)

(٢) الآية كما وردَت في الترجمة العربية من الكتاب المُقدَّس: «ثُمَّ أَخَذَهُ أَيْضًا إِبْلِيسُ إِلَى جَبَلٍ عَالٍ جِدًّا، وَأَرَاهُ جَمِيعَ مَمَالِكِ الْعَالَمِ وَمَجْدَهَا، وَقَالَ لَهُ: "أُعْطِيكَ هذِهِ جَمِيعَهَا إِنْ خَرَرْتَ وَسَجَدْتَ لِي"». (متى ٤: ٨ - ٩). (المترجم)

فرغتُ من قراءة تلك الصفحات القليلة، فاتَّخذتُ قراري بالرحيل من دون أن أودِّعه. في واقع الأمر، لم أجرؤ على البوح إليه بالحقيقة. لم أرغب في تمزيق ذلك العالَم الذي نسجَته غلوريا بايبه من أجل ابنكما، ذلك العالَم المُعقَّد الهشّ كبيت العنكبوت. أضف إلى ذلك أن معرفتي بكونك أباه لم تُجدِني نفعًا، على اعتقادي بأنني بدأتُ أفهم شيئًا عن شقائك آنذاك. وإن لم تعُد لذلك أهمية، لأن الفهم لم يكفِ حتى أتصالح ووجودك، أو وجود ماما، أو وجودي أنا نفسي، أو حتى وجود هذين الكائنَيْن العاجزَيْن اللذين شقيا بهجرانك أيضًا، بطريقتهما.

أرسلتُ الدفتر الصغير إلى ميغيل وأضفتُ إلى كلماته الأخيرة: «وأنا أيضًا أُكِنُّ لك محبةً». لا أدري لماذا فعلتُ ما فعلت. ربما كنتُ مدفوعةً بالرغبة في البقاء بينهما، مستغرقةً في تلك الأجواء الساحرة التي تلفّهما، وإن لم تكُن أكثر من ظلِّ شخصٍ قد رحل.

غدًا أهجر هذا البيت إلى الأبد، هذا البيت الذي صار عندي مكانًا غريبًا. الإضاءة الكهربائية مطفأة الآن، ومن تلك الوحشة المعتمة تبدَّت الأشياء المهجورة التي تسكن البيت في دائرة الضوء الآتي من كشافي: رقعة شطرنج، أرائك من المخمل، أركان خاوية، لوحات، مصابيح مطفأة، نوافذ موصدة، رقع تقشَّر طلاؤها في الجدران... إنها أشياء لا تبالي لأنها لم تعُد تنتمي إلى أي حياة. يتراءى البيت بأسره وقد لفَّته أنفاس الموت التي تركتَها أنت. وفي ذلك المسرح الشبحي لحياتنا المشتركة، بقِي صمتُك على قيد الحياة، ومعه

فراقنا الأخير -من دواعي تعاستي- ذلك الذي صار بموتك فراقًا أبديًّا، لا رادَّ له.

كاپيليرا، يونيو - يوليو ١٩٨١

ابنة تقتفي أثرَ أبيها في جنوب إسبانيا، وسط البيوت الأندلسية العتيقة والأطلال ومعالم الهجران، في رحلة إلى الأمكنة التي شهدَت طفولته وصباه. تستحضر الابنة ذكراه وتناجيه برسالةٍ مسهبةٍ لن تصل إليه في غيابه الأخير. تتأمّله أبًا حنونًا، غريب الأطوار، صاحبَ موهبة سحرية، عاشقًا لم يبرأ من داء العشق حتى النهاية.

لا يقتصر جمال العمل على اللغة المصقولة والصدق المُتدفِّق ومتانة السرد، بل إنه يمتدّ إلى قدْرة الكاتبة وبراعتها في التقاط ذلك الحزن شديد الذاتيّة الذي يمسّ البشر كلهم ويجد طريقه في اللغات جميعها. إن «الجنوب» رواية حميمية تلمس شغاف القلب، وتلقي بصيصًا من الضوء على الصلات الأسرية المشحونة بعيدًا عن صورة الأب النمطية، وتسرد سيرة الأبناء الذين يقضون حياتهم في كشف رموز علاقتهم بآبائهم. بين دفتَي هذا الكتابِ قصةٌ حافلة بمحاولات الهرب، ولكن كل الطرق تؤدِّي إلى الآباء الذين لا يعودون، حقيقةً ومجازًا.

المترجم

أديلايدا غارثيا موراليس

الجنوب

9 789921 808100

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING

www.takweenkw.com | takween.publishing@gmail.com